مَنْسا مُوسَى

السُّلطان الحَاجّ

المتوفى سنة 733هـ = 1333م

تأليف

محمد دوكوري

مُدَرِّس في الجامعة الإسلامية بالنيجر

مكتبة أيوما

جوس - نيجيريا

طبعة الكترونية من الطبعة الثانية

2022 = 1444



مكتبة أيوما

جوس، نيجيريا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وسلّم تسليما كثيرا

مقدمة الطبعة الالكترونية

بعد نفاذ الطبعة الثانية من الكتاب بقي الطلب عليه كبيرا من أنحاء لا يمكنني توفيره فيها ورقيا ولو توافر، ونما إليّ إلحاح في الحصول عليه ممن كنت مستبعدا اهتماما منهم بمثله؛ فرأيت أن أنشر طبعة الكترونية (رقمية) من الطبعة الثانية منه، رجاء أن يكون بها أوسع انتشارا وأيسر وصولا إليه واطلاعا عليه بوسائل القراءة الحديثة. والله أسأل أن يكتب له القبول ويعين مؤلفه ويبارك له ولجميع قارئيه؛ هو نعم المولى ونعم النصير.

وقد حدثت في هذه الطبعة الالكترونية تغييرات قليلة في المضمون.

وأنبّه على استشكال ورد في عَزمي على الكتابة في تاريخ بلاد السودان بعد عشر سنوات من مراودة الفكرة؟ وأقول إن مثير ذلك حديثٌ عارض بيني وبين أحد من تعودت محاورته في تاريخ بلادنا؛ ذكر أن بعض الجماعات لا وجود لها في كتب التاريخ، وأن منهم جماعة منسا موسى؛ فعزمت على تحقيق الفكرة التي كانت راودتني قبل عقد من الزمن؛ ليكون جوابا عن طرح زميلي، وكانت أخبار منسا موسى مناسبة لما أردت من الجواب؛ لسعتها في المصادر، كما كان للرغبة إلى الجواب أثر في المنهجية وأسلوب الكتابة؛ من التركيز على المرجعية والهدف إلى قوة التوثيق، وتخصيص جزء كبير لدراسة المصادر بتنويعها وإجلاء تعلّقها وبيان حجم تناولها..؛ حتى كان من قول صاحبي بعد قراءة الكتاب: لم أتصور أن أمثال الذهبي وابن كثير وابن حجر.. تحدثوا عن شخصية تاريخية من بلاد السودان بهذه الكيفية التي ظهرت في الكتاب.

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من "منسا موسى السلطان الحاج" عام 2012م، ولم تلبث حتى نفدت نسخها في أشهر قليلة، ومنذ ذلك والقراء والمهتمون يلحون في طلب توفير الكتاب، وكنت قد وقفت على مصادر جديدة لم أكن اطلعت عليها؛ فأحببت أن ألحقها بالمصادر وإن لم ألق فيها معلومات زائدة ذات أثر، كما أن بعض مواضع الكتاب كانت بحاجة إلى إعادة نظر. وبقي المشروع معلقا إلى أن يسر الله الآن تمامه.

فهذه الطبعة الثانية من الكتاب أقدمها للقراء الكرام مزيدة بمصادر، ومصححة أخطاء الطبعة الأولى؛ رجاء أن يجدوا فيها بغيتهم، وأن الكتاب يملأ موضعا ما في تاريخ بلاد السودان شكلا ومضمونا ومنهجية.

أسأل الله العظيم أن يجعله خالصا موفَّقا.

تمهيد

لَمّا كنتُ أعِدُّ أطروحة الدكتوراه، راودتني فكرة الكتابة في تاريخ بلاد السودان كما ورد في المصادر العربية الأصيلة، وقد رابني أن كثيرا من الكتب التي قرأتُ في تاريخ بلاد السودان، أصالة أو نقلا؛ لم يظهر لي أن مؤلفيها جَمَعُوا اللسان العربي والثقافة الإسلامية وثقافة بلاد السودان، وإني لأُرى جمعَها ضرورياً لتحقيق وتوثيق وتبيُّن ما كُتب عن بلاد السودان في المصادر العربية الأصيلة[1].

وقد حال دون تحقيق ما راوَدَني حوائلُ دامت أكثر مِن عقد من الزمن.. إلى أن عزمت على الكتابة في موضوع يتَّصِل بجزء مُهِمّ من تاريخ بلاد السودان؛ موضوع تناولته مصادر عربية قارَنَتْ أو قارَبَتْ زَمانَ ومَكانَ أحداثِه، بتفصيلٍ ودقة وعناية عَزَّ مثلها في موضوعات تاريخ بلاد السودان.

وقد مكَّنني موضوع البحث من تجربة منهجٍ طالما قَلَّبته في فكري، وأَحْكَمْتُ بناءَه من خلال حواراتٍ هادفة وغير هادفة؛ مع أصحابٍ يقاسمونني هواية تاريخ بلاد السودان..، وهو منهجٌ أساسه احترام وقائع التاريخ وأحداثه، وعدم تجاوزها لا شكلا ولا مضمونا، وطريقته الالتزام بالنص ومزايلة الذاتية، والبُعد عن التَّسَرُّع إلى نتائجَ لا تؤيّدُها مقدمات عِلميّة، بل تُفرِزُها خَلفيات وقناعات نسَجَتْها

---

[1] نشير هنا إلى جهود الغربيين في دراسة تاريخ بلاد السودان من المصادر العربية، ونخص منهم من الفرنسيين: **موريس ديلافوس** (Maurice Delafosse) في كتبه: Haut Sénégal-Niger. Traditions historiques et légendaires du Soudan occidental. Noirs d'Afrique, Gana et Mali et l'emplacement de leurs capitaes, Buletin du comité d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale francaise 1924. و**شارل مونتي** (Charles Monteil) في: Les Khassonké. Les Empires du Mali, Buletin du comité d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale française 1929. وقام **جوزيف كيوك** (Joseph Cuoq) بجمع مجموعة كبيرة من نصوص تلك المصادر وخاصة التاريخية، في كتابه: Recueil des sources Arabes concernant l'Afrque occidentale du VIIIe au XVIe siècle.

تراكماتٌ ورواسبُ لا تُجدي نَفعا في ميزان المنهجية الرَّزينة، ولا تلبث طويلا حتى تنهار في وجه الموضوعية العلمية، مع التفريق الواضح والقطعي بين ما يفيده النص والاستنتاجات... وهو موضوع: منسا موسى وحَجَّته المشهورة في نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، كما ورد في المصادر العربية التي قارَنَتْ الأحداث أو قارَبَتْها.

وقبل البدء في تفاصيل الموضوع أقدِّم بَيْنَ يَدَيْه دراسة لمصادر أخبار منسا موسى، وحجم الموضوع فيها وأساليب تناولها.

إطلالةٌ على مَصادرنا

ينال المصدرُ أهميةً في نظرنا في سياق بحثنا هذا، من مقارنة مؤلِّفه أو مقاربته منسا موسى وحجّته في الزمان والمكان أو في أحدهما، ومن متانة وعلمية منهجه، مثل تخيّره وتصريحه بمصدره (شفهيا أو مكتوبا)، ونقده إياه، ومن تفريقه بين ذكر الوقائع والأحداث وعرض استنتاجاته الذاتية.

وأهم المصادر التي تحدَّثت عن منسا موسى وحجّته سنة 725=1325، تقع في حدود ثلاثة القرون التالية للحدث؛ أما المؤلفات بعد ذلك فهي بعيدة جدا عن زمان الحدث، ولم نَطَّلِع فيها على أخبار ليست في المصادر قبلها إلا قليلا، على أنا قد أوردنا في ثنايا البحث ما ظهر لنا مفيدا من سائر المراجع التي وقفنا عليها، ومنها مؤلفاتٌ أفادتنا في فهم مواضع من مصادر قبلها؛ مثل "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" للناصري السلاوي؛ فقد أفادنا في فهم مواضع من تاريخ ابن خلدون، كما أن مقارنة ما ذكره الشوكاني في البدر الطالع بما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة؛ أدَّت بنا إلى نظرات لا تخلو من فائدة.

والمصادر والمراجع المذكورة في هذا البحث على نوعين:

النوع الأول
مصادر ذكرت بالنص منسا موسى وحَجَّته

نهاية الأرب في فنون الأدب[1]، للنُّوَيْري (ت733)

وهو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، شهاب الدين النُّوَيْرِي، كان مقرَّبا إلى السلطان محمد بن قلاوون المقلب بالملك الناصر، الذي حجَّ في أيامه منسا موسى. تقلّد النويري بعض الوظائف السلطانية داخل البلاد المصرية وخارجها.

[1] حققه مفيد قمحية وجماعة في 33 جزءا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424=2004.

توفي بالقاهرة[1].

ذكر النويري منسا موسى في حوادث سنة 724 (54/33)، في خمس وأربعين كلمة، وسمّاه: "المَلِك مُوسى، مُتَمَلِّك بِلاد التَّكرور"؛ فذكر وصوله إلى مصر للحج، ورجوعه سنة 725، وألمح إلى الذَّهَب الكثير الذي كان معه، وأنه صرفه كله حتى استدان قبل رجوعه إلى بلده.

ومع كون النويري أقدم مصدر وقفنا عليه في حجة منسا موسى؛ فلم يُسْعِفنا كتابه بتفصيل مناسب لحجمه؛ فلا هو حدَّد أو قرَّب مقدار الذهب الذي حمله، ولا تطرق للقائه السلطان..، ولا اختص بذكر شيء عنه ليس عند غيره، وكأنه يذكر أخباره عن بعد، أو أن منسا موسى مَرَّ بمصر والنويري خارجها؛ فقد سبق في ترجمته أنه تولّى بعض المناصب خارج البلاد المصرية، وقد يكون أنه لم يتسع له الوقت بعد رجوعه، كي ينقل عن شهود مرور منسا موسى، مثل المهمندار[2] وغيره؛ فوفاته بعد رجوع منسا موسى بثماني سنوات، والله أعلم.

كنز الدرر وجامع الغرر، لابن الدواداري (ت736)

وهو أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، ولد ونشأ في القاهرة، ثم انتقل إلى دمشق عام 710[3]، أي قبل وصول منسا موسى إلى مصر، وقد يبين

[1] ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والأعلام للزركلي. أنبه على أني لم أذكر أجزاء ولا صفحات كتب التراجم المرتبة على حروف المعجم، عند الإحالة إليها؛ اكتفاء بأن الرجوع إليها يُسهّله ترتيبُها على حروف المعجم، ولتعدد الطبعات التي قد يكون رجعت إليها.

[2] قال القلقشندي في صبح الأعشى 22/4: "المَهْمَنْدارِيّة: موضوعها تَلَقِّي الرُّسل الوارِدِين، وَأُمَراء العربان وَغَيرهم مِمَّن يَرِدُ مِنْ أَهْل المَمْلَكة وَغَيْرِها".

[3] ترجمته في الأعلام للزركلي. وجعل وفاته بعد عام 736، وقد يكون أخذه من قوله نهاية الكتاب، في آخر حوادث سنة 735: "ووافق الفراغ منه مستهل سنة ست وثلاثين وسبعمائة". ولكن يحتمل أن تكون وفاته بعد العام المذكور، والله أعلم. وعلى أن وفاته خلال أو بعيد عام 736 بَنَيْنَا في إيراد ←

ذلك سبب عدم دقة معلوماته عنه، مقارنة مع غيره.

كتابه في تسعة مجلدات، ورد أخبار منسا موسى في المجلد التاسع، وهو بعنوان: "**الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**"[1]، أي السلطان الناصر بن قلاوون، الذي في أيامه وصل منسا موسى. ذكر وصول منسا موسى للحج في حوادث سنة 724 (ص314).

انفرد ابن الدواداري في كتابه بأمور لا يتابَع عليها: منها أن اسمه "أبو بكر بن موسى"؛ كأنه انقلب عليه، ومنها أنه بقي في مصر سنة، ومنها أن الناصر قلده في حكم بلاده، وأنه التزم هو له بالخطبة والسكة. وأهمل ذكر هدية منسا موسى لسلطان مصر، واكتفى بذكر خلع السلطان وإحسانه.

ويختص بمصدر لم يذكره غيره، وهو القاضي محمد بن فضل الله، فخر الدين القبطى، ناظر الجيش، نصراني أسلم وتسمَّى محمدا (توفي عام 732)[2]، وينقل عن منسا موسى مباشرة. نقل عنه ابن الدواداري أمورا غريبة: منها أنه سمع منسا موسى يقول إن الذهب في بلاده يأتي من أرض جيران لهم من النصارى، ينبت فيها نباتا مثل "نوى الخَرُّوب[3]"!

العِبَر في خَبَرَ مَنْ غَبَرَ[4]، للذهبي (ت748هـ).

وهو محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، من كبار

كتابه في هذا الموضع.

[1] حققه ونشره في القاهرة الألماني هانس روبرت رويمر عام 1960، وهو من إصدارات قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة.

[2] ترجمته في الدرر الكامنة.

[3] الخروب: شجر يثمر قرونا تؤكل وتعلفها الماشية، وفي داخل القرون نوى. وعادة يرجع حجاج بلاد السودان بكمية كبيرة منه، يسمى في بعض اللغات *makka jabe, makan jabi*.

[4] حققه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1405=1985م.

العلماء في الحديث والتاريخ وغيرهما.

وُلِد الذهبي سنة 673، ودخل مصر في طلب الحديث، ثم رجع إلى الشام من رحلته المصرية قبل سنة 700، والمذكورون من شيوخه في مصر وفاتهم قبل مرور منسا موسى، وتوفي الذهبي بدمشق[1]. فالظاهر أنّ الذهبي لم يَلقَ منسا موسى؛ لرجوعه إلى الشام قبل وصوله للحج، ولم تذكر مصادر ترجمته عودته إلى مصر بعد السبعمائة.

اختصر "العبر" و"سير أعلام النبلاء" وغيرهما من كتابِه الحافل "تاريخ الإسلام"، الذي انتهى فيه إلى حوادث سنة 700؛ فلم يَذكر الذهبي فيه أخبارَ منسا موسى، ولكن أوردها في موضعين من كتابه العِبَر:

الموضع الأول في حوادث سنة 724 (69/4)، في نحو خمسين كلمة: ذكر وصوله للحج، وَذَكَر اسمه وعددَ مَنْ حَجّ معه، وأثَرَ حجّه على سعر الذهب، وتَطَرَّق إلى لقائه السلطانَ محمد بن قلاوون، وتبادُل الهدايا بينهما، وذكر شيئا من صفاته وأخلاقه، ونبّه على مذهبه المالكي.

الموضع الثاني في حوادث سنة 725 (72/4)، في خمس عشرة كلمة؛ ذكر رجوعه إلى بلده، وتَطَرَّق إلى تبادل الهدايا بينه وبين السلطان محمد بن قلاوون بعد عودته من بلاد الحرمين.

ولم يذكر الذهبي المصدر الذي استقى منه أخبار منسا موسى وحَجَّته، ويظهر من كثير ممن أتى بعده من مصادرنا، أنهم ينقلون عنه تلك الأخبار، إما من العبر أو من كتاب آخر، بعباراته أو قريب منها، مثل ابن الوردي والصفدي واليافعي وابن كثير.

---

[1] ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي، والدرر الكامنة لابن حجر.

مسالك الأبصار[1] في ممالك الأمصار، لابن فضل الله (ت749هـ)

وهو أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَري، ولد بدمشق حوالي سنة 700 ونشأ بها، ودخل مع والده مصر سنة 728[2]؛ فكتب بها الإنشاء مدة، ثم اعتقل سنة 739، وأفرج عنه بعد عام؛ فرجع إلى دمشق سنة 741 وكتب بها الإنشاء، ثم توفي بها. من شيوخه ابن قاضي شُهبة وابن تيمية وأبو حَيّان[3].

وكتاب ابن فضل الله هذا أهمّ مصادر أخبار منسا موسى وحجته؛ فهو يذكر منسا موسى وبلاده بتفصيل لا يُوازَى، ويَنقل إقامته المصرية عن مصادر أولية التقى هو بهم، وكان أول دخول ابن فضل الله العُمَري مصر بعد ثلاث سنوات من مرور منسا موسى بها، قال: "وقد كان بلغَني أوَّل قدومي مصر وإقامتي بها حديثُ وصول هذا السلطان موسى حاجا، ورأيت أهل مصر لَهِجِين بِذِكر ما رأَوْه من سَعة إنفاقهم"[4].

والذين نقل عنهم ابن فضل الله العمري أخبار منسا موسى:

أبو أحمد بن الجاكي، المَهْمَنْدار؛ كان مختصا بتلقّي الوفود في بلاط سلاطين مصر حين حجَّ منسا موسى[5]؛ فهو الذي تلقّاه عند قدومه إلى مصر من بلاده، وراوَده للطلوع إلى السلطان ولقائه، وتلقّاه كذلك عند رجوعه من

---

[1] الجزء الرابع منه في ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب، وحققه حمزة أحمد عباس، ونشره المجمع الثقافي، أبو ظبي — الإمارات العربية المتحدة، 1423=2002م.

[2] في ترجمته من التاريخ المقفى الكبير للمقريزي أنه أتى إلى مصر مع والده لما ولي أبوه كتابة السر في دولة الناصر محمد بن قلاوون، ثم رجع مع أبيه إلى دمشق، ثم عاد معه إلى مصر لما تولى كتابة السر للمرة الثانية سنة 733.

[3] ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والتاريخ المقفى الكبير للمقريزي، والأعلام للزركلي.

[4] مسالك الأبصار 122/4.

[5] قال القلقشندي في صبح الأعشى 22/4: "المَهْمَنْدارِيّة: موضوعها تَلَقِّي الرُّسل الوارِدِين، وَأُمَراء العربان وَغَيرهم مِمَّن يَرِدُ مِنْ أَهْل المَمْلَكة وَغَيْرِها".

الحجاز إلى مصر، في طريق عودته إلى بلاده[1].

والأمير علاء الدين عليّ، المعروف بابن أمير حاجب؛ كان أبوه من أمراء المماليك، وقرَّره السلطان محمد بن قلاوون في ولاية القاهرة، وكان أميرَ القرافة التي كان بها القصر الذي نزل فيه منسا موسى، وقد توطّدت علاقتهما، وحدّثه منسا موسى كثيرا عن نفسه وعن بلده. مات ابن أمير حاجب سنة 739، بعد أربع عشرة سنة من حجة منسا موسى، وذلك كاف لنقل حكايات الحجة إلى ابن فضل الله الذي أدركه بمصر[2].

ومهنّا بن عبد الباقي العَجْرَمي؛ كان دَلِيلا مرشدا للطريق، وكان في صُحبة منسا موسى في حجه.

وأبو الروح شرف الدين عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي المالكي، ولد سنة 664 ببلاد المغرب، ثم ارتحل في المشرق والمغرب حتى حلّ بالديار المصرية وتَرَأَّسَ بها علماء المالكية. توفي بالقاهرة سنة 743هـ[3].

وأبو سعيد الدّكالي؛ ذكر ابن فضل الله أنه سكن عاصمة بلاد مالّي خمسا وثلاثين سنة.

الباب العاشر من كتاب ابن فضل الله (107/4-129) في ذكر "مملكة مالى وما معها". تحدث فيه ابن فضل الله عن بلاد مالى: موقعها وسكانها من السودان المسلمين والكفار ومن البربر، وذكر سلطانها ووصف مَجلسه، وذكر أقاليمها وعاصمتها عرضا وطولا، وما فيها من أبنية، وذكر تضاريسها وأقواتها

---

[1] الظاهر أن وفاة المهمندار أحمد بن الجاكي كانت قبل سنة 737؛ يظهر ذلك من كون ابن فضل الله يترحم عليه إذا ذكره (122/4)، وقد ذكر أثناء أخبار مالّي (125/4) ما يفيد استمرار هبوط سعر الذهب بعد مرور منسا موسى "بمدة تقارب اثنتي عشرة سنة إلى الآن". والله أعلم.

[2] ترجمة ابن أمير حاجب في الدرر الكامنة لابن حجر، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

[3] ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي 459/1-460، والبدر الطالع للشوكاني.

وحيواناتها ولباس أهلها، ثم تطرق مطولا إلى حجة سلطانها (منسا موسى)، ناقلا عن ابن أمير حاجب والمهمندار ومهنا العجرمي؛ فذكر عنهم لقاء منسا موسى السلطانَ محمد بن قلاوون، وتبادُل الهدايا والتكريم بينهما، وما أنفقه هو وقومه في مصر، وأثر ذلك على سعر الذهب، وذكر – مِن حكايته هو – كتابا ورد من منسا موسى إلى السلطان محمد بن قلاوون، أرسله مع بعض خواصه.

ولابن فضل الله كتاب آخر، باسم "التعريف بالمصطلح الشريف"[1]، لم يتحدَّث فيه عن حجِّ منسا موسى، ولا تحدث عنه ولا عن مملكته بالتحديد والتصريح، لكنه لما أتى على ذكر صيغ المكاتبات الصادرة من ديوان سلاطين مصر إلى الملوك، والواردة إليه، كان يُقَدِّم الكلام على المكاتبة بذكر موجز عن المملكة المتحدَّث عنها؛ فذكر فيه (ص27–28) "مَلِكَ التَّكرور وصاحب مالى"، وحدودَ مملكته، وكثرة الذهب ببلده، وتطرَّق لادعائه النسب العلوي.

ما ذكره ابن فضل الله في "مسالك الأبصار" عن منسا موسى وحجته، وما يأتي في صبح الأعشى للقَلْقَشَنْدِي؛ يغلِّب على الظن أنه في ذكره صاحب "مالى" في كتابه "التعريف"؛ يقصد ابن فضل الله منسا موسى أو خلَفا له؛ منسا مغا أو منسا سليمان.

التاريخ[2]، لابن الوَرْدِيّ (ت749هـ)

وهو عمر بن المُظفَّر بن عمر، زين الدين أبو حفص المَعَرِّي الحَلَبي، توفي في طاعون حَلَب[3]. ذكر في مقدمة تاريخه أنه اختصره من كتاب "المختصر في

---

(1) نسخة مصورة عن طبعة قديمة بمطبعة حوش الشرقاوي بمصر، سنة 1312هـ.

(2) تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية 1417هـ = 1996م لبنان – بيروت.

(3) ترجمة ابن الوردي في طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، وطبقات ابن السبكي.

تاريخ البشر" لأبي الفداء عماد الدين، المعروف بصاحب حماه[1]، وأنه ذيَّله من سنة تسع وسبعمائة (709)، حيث توقف صاحب حماه؛ فأخبار منسا موسى وحجته المشهورة، مما زاده ابن الوردي في تذييله، لا من أصل كتاب صاحب حماه.

وابن الوردي وابن فضل الله العُمَري، شاميان توفيا في عام واحد، لكن ابن فضل الله دخل مصر واتصل بشهود حجة منسا موسى، ولم نعرف من مصادر ترجمة ابن الوردي أنه دخل مصر.

تحدث ابن الوردي عن حجة منسا موسى في حوادث 724 (266/2)، في تسعين كلمة: ذكر تاريخ قدومه مصر، واسمه، وعدد مَن كان معه، وسعة مملكته، والملوك التابعين له، ولقاءه سلطانَ مصر، وتبادل الهدايا بينهما، وحدّد منزله بالقرافة.

ولم يذكر خبر عودته في حوادث سنة 725.

أعيان العصر وأعوان النصر[2]، للصَّفَدي (ت764هـ)

وهو خَليل بن أَيْبَك بن عبد الله، أبو الصفاء صلاح الدين الصَّفَديّ، وَلِيَ ديوان الإنشاء في صَفَد والقاهرة وحَلَب، مات بدمشق، بعد حجة منسا بأربعين سنة[3].

أتى الصَّفَديّ في كتابه (477/5-478) على ترجمة منسا موسى؛ فذكر اسمه، وحدَّد تاريخ وصوله مصر للحج، وذكر منزله فيها، ولقاءه سلطانَ مصر، وتبادل

[1] وهو مؤلِّف كتاب "تقويم البلدان" الذي سيأتي في النوع الثاني من المصادر.

[2] حققه د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، دمشق — سوريا، ودار الفكر، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى 1418=1998م.

[3] ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر، والأعلام للزركلي.

الهدايا بينهما، وذَكَر صفاته وأخلاقه، ونبّه على مذهبه المالكي.

ويختص الصَّفَديّ بأنه ينقل عن محمد بن إبراهيم، شمس الدين ابن الأَكْفانِيّ، أحد شيوخه؛ نقل عنه تفاصيل طريقة أهل مالى في تحية سلطانهم، وقد أهدى منسا موسى إلى ابن الأكفاني في مصر ذَهَباً كثيرا[1].

والتشابه واضح بين كلام الصفدي في كتابه هذا، وكلام ابن الوردي في تاريخه المذكور قبلُ، واتَّهم الصَّفَدي ابنَ الوردي لما ذكر ترجمته[2]، بأنه يَخْتَلِس منه ومِن غيره. لكن ابن حجر ذكر أن المتبادر إلى الذهن عكس ما ذكره الصفدي[3]. ووفاة ابن الوردي قبل وفاة الصفدي بخمس عشرة سنة.

الوافي بالوفيات[4] كتابٌ آخر للصَّفَدي، أوردناه في سياق ذكر النسب العلوي لملوك مالى وغانة؛ ذكر فيه الصفدي النسب العلوي لملوك غانه (152/16)، نقلاً عن ابن سعيد المغربي في كتابه "كنوز المطالب".

وكتاب الصفدي هذا موضعه النوع الثاني من المصادر، وإنما أوردته هنا تبعا لذكر كتابه "أعيان العصر وأعوان النصر".

مِرْآة الجِنان[5]، لليافعي (ت768هـ)

اسم الكتاب: "مِرْآة الجِنان وعِبْرة اليَقظان في مَعرِفة ما يُعْتَبَر مِن حَوادِث الزَّمان". واليافعي هو عبد الله بن أسعد بن علي اليافِعِيّ اليَمَني، نزيل مكة، ولد

---

[1] ترجمة ابن الأكفاني في أعيان العصر للصفدي 477/5.

[2] انظر: أعيان العصر، ترجمة ابن الوردي "عمر بن مظفر".

[3] انظر: الدرر الكامنة، ترجمة ابن الوردي "عمر بن المظفر".

[4] تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1420=2000م.

[5] وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1417=1997م.

سنة 698 تقريباً، وحج سنة 712، وعاد إلى اليمن. ثم حجّ مرة أخرى سنة 718، وجاور بمكة وتزوج وأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ متجردا ملازماً للعلم، ومتردّدا بين الحرمين. ثم رحل إلى الشام ومصر سنة 734، وكان أكثر إقامته في مصر بالقرافة، ثم توفي بمكة[1]. فدخوله مصر بعد حجة منسا موسى بعشر سنوات.

ذكر اليافعي منسا موسى وحجّته في كتابه هذا في موضعين:

الموضع الأول في حوادث سنة 724 (204/4)، في ثماني عشرة ومائة كلمة: فذكر قدومه وعدد من كان معه، وتأثُّر سعر الذهب، وتبادل الهدايا بينه وبين سلطان مصر، وذكر بعض أوصافه، ومذهبَه المالكي، ثم تطرَّق للفتنة التي كادت أن تتطاير شرارتُها بين عسكره وعسكر المماليك الذين كانوا يحكمون بلاد الحرمين في ذلك العصر، وكان يباشر حكمها أشرافٌ نيابة عنهم.

والموضع الثاني في حوادث سنة 725 (206/4)، ذكر فيه عودته من الحج وهديته إلى سلطان مصر، في خمس عشرة كلمة.

اختصّ اليافعي بأن منسا موسى وصل مكة للحج وهو مُجاوِرٌ بها، كما يؤخذ من مصادر ترجمته، ولكن أكثر الأخبار التي أوردها، يَغْلِب على ظَنِّنا أنه يَنقُله عن غيره، وما أورده يشبه ما ذكره الذهبي في العِبَر.

ويؤكد وجودَ اليافعي في مكة حين حج منسا موسى، ما انفرد بنقله من أحداث في مكة لا توجد عند غيره[2]، وهي الفتنةُ التي شبَّت بين أهل مالى وعسكر سلطان مصر، وتطرق في حكايتها إلى ذكر منزل منسا موسى في مكة؛ في رِباط الخُوزِيّ عند باب إبراهيم، غرب الحرَم المكي.

---

[1] ترجمة اليافعي في المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغرى بردى.

[2] إلا من ينقل عنه، كما يأتي عند النجم عمر (ت885) في إتحاف الورى، وسيأتي أنه ينقل منه.

البداية والنهاية[1]، لابن كثير (ت774هـ)

وهو إسماعيل بن عمر، الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي، ولد حوالي سنة 700، ونشأ بدمشق، ثم دخل مصر لطلب العلم، وأجاز له فيها: الواني، علي بن عمر بن أبي بكر، المتوفى في محرم سنة 727؛ والختني، يونس بن إبراهيم بن عبد القوي فتح الدين أبو النون الدبابيسي، المتوفى سنة 729[2].

فابن كثير دخل مصر وطلب بها العلم، وتوفي اثنان أجازاه مِن علماء مصر، بعد حجة منسا موسى، وكان لابن كثير، حين حج منسا موسى، خمسٌ وعشرون سنة؛ فلا يبعد أن يكون حاضرا في مصر عند قدوم منسا موسى أو قريبا، ولكن لم يظهر لنا شيء من ذلك فيما حكاه من أخباره في كتابه.

ذكر ابن كثير حج منسا في حوادث سنة 724 (18/240-242)؛ فحدَّد شهر وصوله إلى مصر، وذَكَر منزله فيها، وعَدَدَ مَن حضر معه مِن قومه، ومِن المغاربة، وذكر أوصافه وسعةَ مُلكه، ولقاءه سلطان مصر وتبادل الهدايا بينهما. ولم يذكر عودته في حوادث سنة 725.

وبعض ألفاظ ابن كثير في كتابه، قريبة من ألفاظ كلٍّ من ابن الوردي في تاريخه والصفدي في أعيان العصر؛ فلا يبعد أن يكونا من مصادره في أخبار منسا موسى وحجته، يؤكِّده أن ابن كثير ينقل في كتابه عن الصَّفدي في مواضع أخرى كثيرة، ويصرِّح باسمه، وقد روى عنه مباشرة في موضعين منه.

الرحلة[3] لابن بطوطة (ت779هـ)

هذا كتاب "تحفة النّظّار في غَرائِب الأَمْصار وعَجائِب الأَسْفار"، وهو أخبار

---

[1] تحقيق د. عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، مصر.

[2] انظر: ترجمة ابن كثير وشَيْخَيْه المذكورَيْن في الدرر الكامنة.

[3] الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة 1322.

رحلات قام بها محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطَّنْجِي، أبو عبد الله ابن بطوطة، من أشهر الرَّحَّالة المسلمين؛ جاب بلاد الهند والصِّين واليَمَن والحِجاز وغيرها، وكانت بلاد السودان خاتمة رحلاته. استدعاه السلطان أبو عنان المَرِيني وأمره بتدوين رحلته، فأملاها على تلميذه ابن جُزَي[1]، وهو محررها سنة 756.

وينقل ابن بطوطة أخبار منسا موسى مشافهة عن بعض مَن رافقوه في رحلة الحج، والتقى هو بهم في بلاد السودان، وكان دخوله بلاد مالى سنة 753، بعد عودة منسا موسى من الحج بثمان وعشرين سنة، وبعد وفاته بعشرين سنة.

ذكر ابن بطوطة منسا موسى وحجته في موضعين من رحلته:

الموضع الأول (245/2): نقل عن فَربا مَغا؛ كان حاكما على بعض نواحي مالى القريبة من عاصمتها، وذكر أنه مِمَّن حَجّ مع منسا موسى. نقل عنه حكاية السرقة التي ادَّعاها أحد مرافقي منسا في طريق ذهابه إلى الحج.

الموضع الثاني (247/2): اختصَّ فيه ابن بطوطة مِن بين مصادرنا، بتفصيلٍ أكثر في أخبار سراج الدين ابن الكُوَيك، مِن تُجّار الإسكندرية؛ فذكر دخوله بلاد مالى لاقتضاء دينه من منسا موسى، ووفاته بها.

درة الأسلاك في دولة الأتراك[2]، لابن حبيب الحلبي[3] (ت 779هـ)

اسمه الحسن بن عمر بن الحسن. وذكر منسا موسى في حوادث سنة 724، في ثلاث وأربعين ومائة كلمة، في كلام مسجوع فيه إطناب كثير؛ فذكر قدومه هذا العام إلى مصر في طريق الحج، ووصفه خَلقيا، وذكر مذهبه، والأموال

---

[1] أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي. ترجمته في الأعلام.

[2] نسخة مخطوطة مزخرفة بالألوان، تقع في 287 وجها، في مكتبة أيا صوفيا، توجد نسخة مصورة منها في شبكة الألوكة (www.alukah.net).

[3] ترجمته في الدرر الكامنة، والأعلام.

العظيمة والجموع التي كانت معه، وسعة ملكه، والتهادي والإكرام بينه وبين السلطان، ونزوله القرافة الصغرى.

التاريخ، لابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ).

اسم الكتاب "ديوان المُبتَدَأ والخَبَر في تاريخ العَرَب والبَرْبَر ومَن عاصَرَهُم مِن ذَوِي الشّأن الأكبَر". تقلّب ابن خلدون في بلاد المغرب والأندلس، وكان مقرَّبا إلى سلاطينها، في وسط دسائس وتنافس ووشايات عليه مِمَّن يُحيط بالسلطان؛ حتى تركها وقَدِم البلاد المصرية سنة 784؛ فولي بها قضاء المالكية، إلى أن توفي بالقاهرة.

نقل الشوكاني عن ابن حجر ما يدل على أن لتاريخ ابن خلدون نسخةً رجع عنها، وفيها أخبار لا توجد في النسخ الموجودة زمن الحافظ ابن حجر[1].

تحدّث ابن خلدون في تاريخه عن منسا موسى وحجَّته في أكثر من مَوضعٍ ومناسبة، وهو أهمّ مصادرنا بعد "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العُمَري.

يروي ابن خلدون في تاريخه عن مصادرَ مشافهةً ويُعيّنهم: منهم مَن قال عنه: "الشيخ عثمان، فقيه أهل [غانة] وكبيرهم عِلما ودِينا وشُهرة، قَدِم مصر سنة تسع وتسعين [799] حاجا بأهله وولده، ولَقِيتُه بها". ومنهم مَن وصفه بقوله: "الحاج يونس ويمال التكروري، تُرْجُمان هذه الأمة بمصر". ونقل في سياق ذكر بلاد مالى، سلسلةَ سلاطينها وأخبارَهم عن "أبي عبد الله محمد بن وانسول"، وقال إنه "مِن أهل سِجِلْماسة، كان أَوْطَنَ أرض كَوْكَوْ مِن بلادهم".

الموضع الأول من مواضع ذكر منسا موسى في تاريخ ابن خلدون: فصلٌ عنوانه: "حَجُّ مَلِكُ التَّكْرُور" (495/5-496). قدَّم فيه بذكر ممالك السودان،

---

[1] ترجم لنفسه ترجمة حافلة ومفصلة في آخر تاريخه، وانظر ترجمته في البدر الطالع.

وعرَّج على تاريخ دخول الإسلام فيها، وكيف تحوَّلت السَّيطرة على المنطقة من شعب إلى آخر، حتى سَيطرة "أهل مالى"، وذكر أول مَن حَجّ مِن ملوكهم، ومَن حَجّ بعده منهم، ثم انتهى إلى حَجّة منسا موسى؛ فذكر الطريق التي سلكها، ووصولَه مصر، ولقاءَه سلطانَها في مجلسه، وتبادل الهدايا والتكريم بينهما في ذهابه إلى الحج وبعد عودته، وذَكَر كثرةَ ما كان معه من الذهب، ونفاذَ ذلك كله، واقتراضَه من ابن الكُوَيك وغيرِه من التجار.

وهنا انفرد ابن خلدون مِن بين مصادرنا بذكر نَكْبَةٍ أصابَتْ منسا موسى وقومه في الحجاز، في طريق عودتهم من الحج.

ونَصَّ ابن خلدون على أن وفاة ابن الكُوَيك سنة 734 كانت بعد وفاة منسا موسى، وهو أقرب ما ذكر في مصادرنا من تحديد وفاة منسا موسى.

الموضع الثاني: ذكر ابن خلدون فصلا كبيرا عنوانه "الخَبَر عَن مُلُوك السُّودان المُجاوِرِين لِلمَغْرِب مِن وَراء هؤلاء المُلَثَّمِين ووَصف أحوالِهم والإلمام بِما اتَّصَل بِنا مِن دَولَتِهم" (264/6–270). بدأ فيه بذكر تعاقب شعوب المنطقة في السيطرة عليها، حتى أتى الحديث عن مالى (ص266)؛ فذكر تَغَلُّبَهم على جيرانهم من ممالك السودان، وأرّخ دخول الإسلام فيهم، وذكر ملوكهم الذين تعاقبوا على الحكم، ثم ذكر تحوّل المُلك من عَقِب سُنْجَتَا إلى عقب أخيه أبي بكر (ص267–269)؛ فذكر منهم منسا موسى، وذكر أخلاقه، وعامَ حجِّه، ولقاءه في موسم الحج أبا إسحاق الساحلي، وعودته معه إلى بلده، واستيطانَه بها، وذكر أن منسا موسى لَقِيَه أحدُ دعاة الحكم من الموحِّدين في غدامس، وأنه استنجد به، فاستصحبه منسا موسى إلى بلده، وتوطّدت العلاقة بين الثلاثة (منسا موسى والساحلي والموحِّدي)، ثم ذكر كثرة الذهب الذي كان مع منسا موسى في رحلته، وذكر أن الساحلي بنى في عاصمة مالى قبةً رائعة، وأن منسا موسى أغدق عليه بسبب ذلك، ثم تطرَّق إلى العلاقة بين سلطان مالى وأبي

الحسن من سلاطين الدولة المَرِينية، وتبادل السفارة بينهما، وذكر مدة حكم منسا موسى، ثم تابع في ذكر بقية ملوك مالى بعده.

الموضع الثالث: تطرق فيه إلى ذكر منسا موسى تبعا لا أصالة، وذلك في معرض حديثه عن استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان وقتله سلطانها من بني عبد الواد (152/7)؛ فتطرق لذكر رجالات الدولة المَغْلوبة، وذكر منهم "هلال"، مولى سلطان تلمسان؛ وذكر أنه حج سنة 724، ولقي في طريق الحج ركب منسا موسى، وأنه توطّدت العلاقة بينهم.

الموضع الرابع: ذكر فصلا عنوانه "الخَبَر عن هَدِيّة السُّلطان [يعني أبا الحسن المَرِيني] إلى مَلِك مالى من السُّودان المُجاوِرِين لِلمَغرِب" (352/7–353)؛ فذكر استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان وقتل سلطان بني عبد الواد، وأن سلطان مالى أرسل إليه هدية بتلك المناسبة، وأن أبا الحسن المريني أرسل بِرَدّ الهدية، سِفارةً مع هدية قيمة وصلت مالى بعد وفاة سلطانها، والتقت بخَلَفه.

موضع خامس: يحتمل هذا الموضع من تاريخ ابن خلدون، أن تكون له صلة بموضوعنا، وذلك أنه عقد فصلا عنوانه: "الخَبَر عن وَفد السُّودان وهَدِيَّتهم وإغرابهم فيها بالزرافة" (411/7)، في معرض حديثه عن السلطان أبي سالم المَرِيني (ت762)[1]؛ فبدأ بذكر الهدية التي أرسلها أبو الحسن المريني إلى سلطان مالى، ومكافأة سلطان مالى بهدية أراد الإغراب بها، فماتَ والهدية في حدود بلاده الشمالية، فحدث اضطراب في مالى، وتنازع على الحُكم، ثم استتبّ الأمر؛ فأمر السلطان بتنفيذ الهدية كما وجّهها سَلَفه، فوصلت الهدية مدينة فاس، حاضرة المَرينيين، في صفر سنة 762.

[1] قتل في ذي القعدة من السنة المذكورة، إثر فتنة وثورات داخلية. انظر الاستقصاء للناصري 7/4، 38.

وقد وقع شيء من الاختلاف بين حكاية الهدية عند ابن خلدون هنا وحكايته لها في الموضع الرابع السابق 352/7؛ فيما يتعلق باسم سلطان مالى، والذي يظهر لنا أن منسا موسى ليس هو السلطان الذي هادى أبا الحسن المريني؛ نظرا إلى تاريخ وفاة منسا موسى[1].

موضع سادس (ص67): وقد نقلت عن ابن خلدون موضعا سادسا ليس في منسا موسى ولا في حجته، وذلك في المقدمة التي قدم بها تاريخه[2]، أثناء حديثه عن قضية النسب العلوي لسلاطين مالى وغانة، وقد نقل هو النسبَ العلويَّ لملوك غانة في الموضع المذكور، وذكر أثناء ذلك أن دولة غانة ذهبت في عهده وأنها أصبحت تابعة لسلطان مالى. فمحل هذا الموضع في النوع الثاني من المصادر، لكن ذكرته هنا تبعا لمواضع تاريخ ابن خلدون.

صُبح الأَعشى[3]، للقَلْقَشَنْدي (ت821هـ)

وهو أحمد بن علي بن أحمد، شهاب الدين القَلْقَشَنْدِيّ، عاش بالقاهرة، وكَتَب بها الإنشاء، وكان مقرَّباً إلى الحُكم ورجاله، مولده سنة 756[4].

ينقل القلقشندي أخبار منسا موسى وحجته عن مسالك الأبصار لابن فضل الله، وتاريخ ابن خلدون، ولا يكاد يخرج عنهما بألفاظهما، وينقل قليلا منها عن تقويم البلدان لصاحب حماه، وعن الروض المعطار للحِمْيَري:

ففي الموضع الأول: ذَكَر ممالك السودان الواقعة جنوب مصر (263/5)،

---

[1] وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله، عند ذكر وفاة منسا موسى ص: 78.

[2] ومقدمة ابن خلدون طبعت مفردة عن التاريخ طبعة قديمة في مطبعة الشرفية، اطلعت على نسخة مصورة منها، والموضع المذكور في ص60.

[3] نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1987م، تحقيق د. يوسف علي طويل.

[4] ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لابن العماد، وفيات سنة 821.

وأتى إلى ذكر بلاد مالى (ص271)؛ فذكر موقعها وأقاليمها وملوكها وأخبارهم كما في مسالك الأبصار، ثم ذكر منسا موسى وحجه؛ ناقلا عن تاريخ ابن خلدون كثيرا وعن مسالك الأبصار قليلا (ص283)، وتطرّق إلى دعوى النسب العلوي (ص286)؛ فنقل عن ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" ذِكرَه النسب العلوي لملوك مالى، ثم نقل ذكر النسب العلوي لملوك غانه عن صاحب حماة في تقويم البلدان، وحاول أن يجمع بينهما؛ فذكر احتمال أن يكون أبو الفداء يقصد سلطانَ "مالى".

وما صنعه ترجيحٌ لما ذكره ابن فضل الله، وتأويلٌ لمُراد أبي الفداء صاحب حماه حتى يوافق قول ابن فضل. ويدل على ترجيحه ابن فضل الله أنه بدأ به، وأنه ذكر دعوى النسب في أخبار ملوك مالى، ولم يذكرها في كلامه على مملكة غانة، وكرّر دعوى النسب مرتين أخريين في ملوك مالى، وهما الموضعان التاليان.

الموضع الثاني: ذكر فيه نماذج من الخطاب السلطاني الصادر إلى ملوك السودان (8/9–10)؛ فذكر نموذج الخطاب السلطاني إلى "مَلِك مالى"، وقدَّم كلاماً عن بلاد مالى وعن مَلِكها زمن السلطان محمد بن قلاوون، وهو منسا موسى، وأنه ورد منه كتاب إلى سلطان مصر، وكرّر النقل عن ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" ادعاء "مَلِك التَّكرور" النسب العلوي، ثم ذكر نموذج الكتاب السلطاني الصادر إليه، ونبّه على أنه لا يُقَرّ له فيه بشيء من دعواه النسب العلوي، ولا يُوصف بأيّ لقب يدلُّ على ذلك.

الموضع الثالث: في معرض كلامه على نماذج من الخطاب الوارد عن ملوك السودان إلى سلطان مصر، فأتى على ذكر "صاحب مالى" (8/118)؛ فذكر شيئا من أخباره، وأنه لم يطَّلِع على أي نموذج لكتابٍ وارد منه، إلا ما أشار إليه ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف"؛ مِن ورود خطابٍ عن منسا موسى إلى محمد بن قلاوون. وتأسّف على أنه لم يُورِد نَصَّ الكتاب.

ونقلتُ من صبح الأعشى موضعين آخرين، في غير خصوص منسا وحجه، وذلك في سياق الحديث عن النسب العلوي لملوك مالى وغانة، والاستطراد بذكر من ادّعاه مِن غيرهم من ملوك السودان: أحدهما (358/1) في دعوى ملك برنو أنه عربي قُرَشي من ذرية سَيف بن ذِي يَزِن. وذكر أنه لم يُحَقِّق النسب. والآخر (8/8) في ذكر النسب العلوي لبعض ملوك كانم.

وللقلقشندي كتاب آخر: نِهاية الأَرَب في مَعرِفة أنساب العَرَب[1]. ذكرته بسبب تطرقه إلى ذكر النسب العلوي لملوك غانة في موضعين منه: أحدهما في سياق ذكر الحُسَيْنيين من آل علي بن أبي طالب (ص128)[2]؛ فذكر منهم "بني صالح، ملوك غانة من بلاد السودان". وهو مخالف لما ذكره في الموضع الآخر؛ فإنه ذكر بني صالح (ص311)، وساق نسبهم إلى الحَسَن لا الحسين، ثم قال: "كان لهم دولة ببلاد غانة من بلاد السودان من جهة البحر المحيط الغربي، ذكرهم صاحب رجار في كتابه الجغرافيا". ثم نقل عن ابن خلدون في تاريخه احتمالا في نسب صالح هذا.

وما ذكره في الموضع الثاني هو الموافق لما عند غيره، ولِما في مصدره الذي نقل منه، وهو الإدريسي، فقد ذكر في كتابه في الجغرافيا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، النسبَ العلوي لملوك غانة، وأنهم من بني الحسن بن الحسن.

والعجيب أن القلقشندي في كتابه السابق "صبح الأعشى"، ذَكر اختلاف النقل في النسب العلوي لملوك مالى ولملوك غانة، مرجِّحا نسبته لملوك مالى، ومكررا ذلك أكثر من مرة؛ وفي هذا الكتاب نقل النسب لملوك غانة فقط، مرة

---

[1] تحقيق إبراهيم الأنصاري، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية 1400=1980م.

[2] النسبة إلى الحسين موافقة لما في نسخ كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي التي اطلعت عليها. والنسبة إلى الحسن موافقة لما نقله الصفدي عنه في كتابه كنوز المطالب.

إلى بني الحسن، وأخرى إلى بني الحسين، دون إشارة إلى ملوك مالى. فانظر إلى تباعد صنيعه في نهاية الأرب عنه في صبح الأعشى.

وذكري للكتاب في هذا النوع جاء تبعا لا أصالة.

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام[1]، لتقي الدين الفاسي (ت832هـ)

هذا المصدر من أهم الكتب المؤلفة في مكة، وهو مصدر لكثير من أخبارها في الكتب المؤلفة بعده. وللمؤلف كتاب آخر موسوعي أسماه "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"[2]، وهو في تراجم الأعيان الذين لهم علاقة بمكة. ولم أجد فيه شيئا من أخبار منسا موسى ولا ترجمته، ولا يتوقع أن يترجم له؛ بسبب ما ذكره في مقدمة الكتاب من ضابط للمستهدَفين في الكتاب، فقد قال إنه في "تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ممن سكنها مدة سنين أو مات بها، وتراجم ولاة مكة وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها، من أهلها وغيرهم، وتراجم من وسّع المسجد الحرام أو عمره أو عمر شيئا منه، أو من الأماكن الشريفة التي ينبغي زيارتها بمكة وحرمها، كالمدارس والربط والسقايات والبرك والآبار والعيون والمطاهر وغير ذلك من الآثار"[3].

أما مصدرنا (شفاء الغرام) فعقد فيه الفاسي بابا قال إن "المقصود ذكره في هذا الباب.. أخبار تتعلق بالحجاج، ولها تعلق بمكة أو باديتها، وحَجِّ جماعة من الخلفاء والملوك في حال خلافتهم وملكهم"، قال: "رغبتنا في ذكر ذلك تاريخ وقوعه لا مناسبة كل حادثة لما قبلها، مع مراعاتنا للاختصار في جميع ما ذكرناه"[4].

---

[1] تحقيق "لجنة من كبار العلماء والأدباء"، نشرته مكتبة النهضة الحديثة، 1956.

[2] حققه محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1986.

[3] العقد الثمين للفاسي 3/1.

[4] شفاء الغرام 213/2. وأفاد محققو الكتاب (432/2) أن المؤلف اختصره، واختصر المختصر، واختصر ←

ذكر الفاسي الحوادث بترتيبها الزمني حتى أتى إلى ذكر حجة منسا موسى (244/2)، فاختصرها في عشرين كلمة، ذكر فيها اسمه، ووصَفه بملك التكرور، وذَكَر سَنة حجه، وعدد من حضر معه من قومه.

السلوك لمعرفة دول الملوك[1]، للمَقْرِيزي (ت845هـ)

أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين أبو العباس المقريزي. ولد ونشأ بالقاهرة، وطاف بمكة والشام[2].

ذكر منسا موسى وحجَّه في حوادث سنة 724 (73/3)، في سبعين كلمة؛ فذكر قدومه وحدَّد تاريخه، وذكر إقامته تحت الأهرام، ولقاءه السلطان محمد بن قلاوون، وتبادل الهدايا والتكريم بينهما، وتطرّق إلى أثر مروره على سعر الذهب.

ولم يذكر المقريزي عودة منسا موسى في حوادث سنة 725.

نقلت من كتاب "السلوك" مواضع أخرى ليست في منسا موسى وحجته: في حوادث سنوات 744 (405/3)، 752 (149/4)، 819 (419/6)، 835 (236/7، 239)، 842 (415/7)؛ في سياق الحديث عن حُجاج بلاد مالي والموازنة بين حجة منسا موسى وحَجِّ مَن حَجَّ بعده مِن ملوكها وأهلها.

الذَّهَب المَسْبُوك[3]، للمقريزي (ت845هـ).

اسم الكتاب "الذَّهَب المَسْبُوك في ذِكْر مَنْ حَجَّ مِن الخُلَفاء والمُلُوك".

مختصر المختصر؛ فمختصر شفاء الغرام: تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام. ومختصر تحفة الكرام: هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام. ومختصر هادي ذوي الأفهام: الزهور المختطفة في تاريخ مكة المشرفة.

(1) تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية 1418 = 1997 بيروت.

(2) ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي.

(3) تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد، الطبعة الأولى 1420=2000م.

وهو كتاب ثان للمقريزي خصَّه بذكر مشاهير الخلفاء والملوك الذين أدَّوا الحج في عهد حكمهم. فقَدَّم ذكر حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر اثني عشر من خلفائه، منهم الأربعة الراشدون، ثم ذكر أربعة عشر ملكا، منهم منسا موسى، ذكره في الترتيب الثاني عشر.

بدأ المقريزي بذكر مَن حج مِن ملوك بلاد مالى قبل منسا موسى (ص140-143)، ثم ذكر حجّه؛ فبدأ بذكر تاريخ وصوله إلى مصر، ولقاءه سلطانها، وتبادل الهدايا والتكريم بينهما، وخروجه من مصر إلى الحجاز، وأفاد بذكر تأخُّره بمكة بعد الحج، وذكر نفاذ ماله واقتراضه من التجار، ثم ذكر شيئا من عاداته.

درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة[1]، للمقريزي (ت845هـ)

هذا كتاب ثالث للمقريزي، خصصه لترجمة من عاصره من الأعيان، فذكر (496/3) منسا موسى الثاني، ابن منسا مغا بن منسا موسى، وذكر شيئا من أخبار بلاد مالى وسلاطينها كما في المصادر قبله؛ فأتى (498/3) على ذكر منسا موسى وحجته، وأنه ترجمه في تاريخه المقفى الكبير[2].

الدُّرَر الكامِنة في أَعْيان المِائة الثّامِنة[3]، لابن حجر (ت852هـ)

وهو أحمد بن علي بن محمد، أبو الفضل ابن حجر العسقلاني. ولد سنة 773 بمصر، ونشأ وتوفي بها[4].

---

[1] حققه د. محمود الجليلي، الطبعة الأولى 1423=2002، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان.

[2] المقفى الكبير مطبوع في ثمانية مجلدات بتحقيق محمد اليعلاوي، الطبعة الأولى 1411=1991، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، وليس فيه ترجمة منسا؛ ووقفت تراجمه على المحمدين، وأفاد المحقق أن أجزاء منه ما زالت مفقودة.

[3] دار الجيل، بيروت – لبنان، 1414=1993م.

[4] ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي.

والغالب على الظن أن مولد ابن حجر الواقع بعد حجة منسا موسى بنحو خمسين سنة، لا يُمَكِّنه من إدراك شهود حجة منسا موسى، لكنه عاش في مصر حيث مرَّ منسا موسى، وهو عالم موسوعي الاطلاع موثوق الرواية؛ فكان لما ذكره من أخبار منسا موسى قيمة علمية كبيرة.

أكثر ابن حجر في الدرر الكامنة النقل عن كتاب "ذهبية العصر" لابن فضل الله العمري، لكن الذي ظهر من كلامه في الدرر عن حادثة تقبيل الأرض؛ أنه لم ينقل أخبار منسا موسى من كتاب "مسالك الأبصار" لابن فضل الله، وكان عنده علم بالكتاب لكنه بعيد عنه؛ يدل عليه أنه قال في ترجمة ابن تيمية: "وَرَثاهُ شِهاب الدِّين ابنُ فَضْل الله، بِقَصِيدةٍ رائِيّة مَلِيحة، وتَرْجَم لَه تَرْجَمة هائِلة؛ تُنْقَلُ مِن المَسالك إن شاء الله".

ذكر ابن حجر العسقلاني ترجمة منسا "موسى بن أبي بكر" (383/4-384)؛ فذكر اسمه ونسبته ولقبه، ثم ذكر حجه؛ فبدأ بتاريخ قدومه، ثم ذكر لقاءه السلطان محمد بن قلاوون، وتبادل الهدايا بينهما، وأثر مروره بمصر على سعر الذهب، ثم ذكر شيئا من أخباره؛ فذكر مَهابته، وكثرة ما جلب من الأموال، واقتراضه من التجار، وكثرة إنفاقه، ومدة مُلْكه، ومَن خَلَفه مِن الملوك.

ونقلت من مؤلَّف آخر لابن حجر، وهو إنباء الغُمر بأبناء العُمر[1]، ولم يَذْكُر فيه منسا موسى ولا حَجَّته؛ لأنه بدأ فيه بحوادث سنة 773، وهو عام ولادة ابن حجر. ونقلي منه في سياق أخبار رَكْب حجاج التكرور بعد منسا موسى، وذلك في حوادث سنوات 819 (99/3)، 835 (473/3)، 836 (491/3)، وفي عادة خروج ركب الحج من مصر.

[1] تحقيق د. حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة – مصر، 1389=1969م.

إتحاف الورى بأخبار أم القرى[1]، لنجم الدين ابن فهد (ت885هـ)

عمر بن محمد القرشي المكي. ذكر في مقدمة كتابه أنه اعتمد على مؤلفات شيخه تقي الدين الفاسي (ت832): شفاء الغرام والعقد الثمين ومختصراته، وأنه "ألحق به كثيرا"[2]. أما العقد الثمين فلم أقف فيه على شيء من أخبار منسا موسى، وأما في شفاء الغرام فقد ذكرها الفاسي مختصرة جدا، كما سبق. أما هذا الكتاب (إتحاف الورى) ففيه تفصيلٌ نسبي لأخبار منسا موسى؛ فيكون لمؤلفه مصدر آخر غير مؤلفات شيخه التي ذكرت.

وبمقارنة ما ذكره النجم بما في المصادر، يظهر أنه نقل أخبار منسا موسى عن اليافعي (ت768) في كتابه السابق (مرآة الجنان)، أو من مصدر آخر نقل عنه. ويدل على ذلك أنه لم يترك شيئا مما في كتاب مرآة الجنان، ولا زاد شيئا على ما فيه، بل ينقل منه بلفظه في أكثر المواضع. وأنه أورد ما انفرد به اليافعي بين المصادر، وهو الفتنة بين عسكر منسا موسى وعسكر المماليك[3].

ويوجد فرق شكلي بينه وبين اليافعي. فرَّق اليافعي أخبار منسا؛ فذكر وصوله في أخبار سنة 724، وذكر عودته في حوادث السنة الموالية، وجمع النجم ابن فهد في الموضع الأول.

بدائع الزهور في وقائع الدهور[4]، لابن إياس (ت 930هـ)

وهو محمد بن أحمد بن إياس، أبو البركات الحنفي المصري، من تلاميذ

[1] تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر جامعة أم القرى، مكة، الكتاب 20، مركز البحث العلمي، 1983.

[2] إتحاف الورى 6/1.

[3] ترجم السخاوي للنجم ابن فهد في الضوء اللامع، وذكر أنه خرَّج "لزينب ابنة اليافعي، وعمل لها العشاريات". وذكر مثله في ترجمة زينب بنت اليافعي، وهو صاحب كتاب مرآة الجنان.

[4] من منشورات كتاب الشعب، مصر.

جلال الدين السيوطي، كان جده من أمراء المماليك[1].

ذكر حج منسا موسى في سبع وعشرين كلمة فقط (138/1)، فسمّاه "مُوسى مَلِك التَّكْرُور"، وذكر هداياه الجليلة، وأن سبب مجيئه إلى مصر أنه كان في طريقه إلى الحج، وأنه حج وعاد إلى بلاده.

الدرر الفرائد، لعبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري (ت977هـ)[2]

اسم الكتاب "الدُّرَر الفَرائد المُنَظَّمة في أخبار الحاجّ وطَريق مَكّة المُعَظَّمة". نقل فيه أخبار منسا موسى، والظاهر أن مصدره اليافعي، بواسطة النجم ابن فهد السابق، ولم يصرح بأحدهما. ونقل أيضا عن المقريزي وصرَّح بالنقل عنه. وليس فيه ما ليس فيما سبق من المصادر.

نقل أخبار منسا موسى في موضعين من كتابه: أحدهما في سياق ذكر ولاة إمارة الحج (394/1)، فأتى على مَن وليها سنة 724، وأنه أَيتمش المحمّدي، فذكر حج منسا موسى "ملك التكرور". والموضع الآخر في فصل خصَّه "بذكر من حج من ملوك التكرور" (359/2).

تاريخ الفتّاش، لألفع محمود كعت[3]

مؤلف الفتاش من علماء بلاد السودان، وهو مع السَّعدي؛ أقرب مُؤَلِّفِي

---

(1) ترجمته في الأعلام للزركلي.

(2) تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط1، 2002، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(3) تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تأليف القاضي ألفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، وذيْله لبعضٍ مِن حَفَدته، وقف على طبعه السيد هوداس مدرس اللغة العربية في باريس، وشاركه في ذلك السيد دلافوس مدرس اللغات السودانيات. LIBRAIRIE D'AMERIQUE ET D'ORIENT Adrien MAISONNEUVE J. MAISONNEUVE, succ. 11, rue St-Sulpice PARIS 1981. وفي مؤلِّف الفتاش وفي القرن الذي عاش فيه اشتباهٌ وعدم وضوح، وقد وضعناه هنا بناء على ما يظن أن أقدم من ينسب إليه الكتاب مفردا أو مشاركة، توفي في القرن العاشر الهجري.

مصادرنا إلى منسا موسى دارا، ولكنهما من أبعدهم عنه زمانا.

الباب الثاني من الفتاش (ص 32–38) معقود في منسا موسى، ويُسمّيه "كَنْكُ مُوسى"؛ فبدأ بذكر أخلاقه وصلاحه، وحدود ملكه، ثم ذكر حجه، وانفرد بذكر دافع غريب لِحَجّه، وهو قتلُه أمَّهُ خطأً، واختصَّ كذلك بذكر أخبار رحلة حجه الواقعة في بلاد مالى والسودان، لم تذكرها مصادرنا الأخرى؛ فذكر استعداداته للحج من الزاد والرجال، وذكر بعض الأخبار والحوادث في طريقه إلى مصر، وتفرد بذكر صحبة زوجته في رحلة الحج، والنَّهر الاصطناعي الذي عُمِل لها بناء على طلبها، وذكر رجوعه من الحج بصحبة بعض الأشراف.

تاريخ السودان[1]، للسَّعدي (ت1066هـ)

وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السَّعدي. ذكر منسا موسى في ثلاثة مواضع من كتابه:

الموضع الأول: خصَّص الباب الثاني (ص7–8) بذكر أخبار منسا موسى، ويسميه "كنكن موسى"، فذكر أنه أوّل مَن مَلَك سُغَيْ من سلاطين مالى، وذكر أخلاقه وصلاحه، ثم ذكر حجه، ولم يحدِّد سنة حجه، بل ذكره بالتقريبي: "أوائِل القَرْن الثّامِن"، وذكر القوّة التي رافقته، والطريق التي سلكها، وتفرد بذكر أن أهل المشرق لم يَصِفوه بجُود ولا كَرَم؛ مقلِّلا ما تصدَّق به في الحرم، وموازِنا بينه وبين السلطان أسكيا محمد في حجّه. ثم ذَكَر أعماله في بلاد سُغَيْ. ونقل بعض أخباره عن ابن بطوطة في رحلته.

الموضع الثاني (ص51): في ترجمة سيدي يحيى من أهل تنبكت، ذكر الشيخَ

[1] إخراج هوداس، باريس، فرنسا 1981،1981 Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris.

عبد الرحمن التميمي، وأنه أتى من الحجاز مع "السلطان موسى صاحب مَلّى حين رجع من الحج".

الموضع الثالث: الباب الرابع عشر في أخبار أئمة مساجد تنبكتُ (ص56-57)؛ ذكر أن منسا موسى بنى الجامع الكبير في تنبكتُ بعد رجوعه من الحج، وذكر من أئمة الجامع: الفقيه القاضي كاتب موسى، وأنه من العلماء الذين بعثهم منسا موسى للتعلم في فاس.

منائح الكرم، للسِّنجاري (ت1125هـ)[1]

علي بن تاج الدين السِّنجاري. واسم الكتاب: "مَنائح الكَرَم في أخبار مَكّة والبَيت ووُلاة الحَرَم". صرّح فيه (341/2) أنه ينقل أخبار منسا عن "الإمام علي الطبري"[2]. وما ذكره اختصارٌ لحكاية اليافعي الفتنة التي شبت بين عسكر منسا موسى والمماليك، فيكون النقل من اليافعي بواسطة الطبري المذكور.

فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور[3]**، للبرتَلّي (ت1219هـ)**

أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتَلِّي الولاتي[4]. ذكر ترجمة عبد الرحمن التميمي (ص176)، وأنه جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى

---

(1) الجزء الثاني من سنة 41 إلى 829هـ، تحقيق جميل عبد الله المصري، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 1998.

(2) هو علي بن عبد القادر الحسيني الطبري (ت1070)، من المؤلفين في تاريخ مكة، له كتاب "الأرج المسكي في التاريخ المكي". نشرته المكتبة التجارية عام 1416هـ، تحقيق أشرف أحمد جمال. ولم أقف عليه؛ فلم أعلم كمية وكيفية تناوله أخبار منسا موسى.

(3) تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1401=1981م.

(4) انظر ترجمته في مقدمة محقق الكتاب نقلا عن أحد تلاميذه.

حين رجع من حجته، بمثل ما في تاريخ السودان للسعدي، كما سبق قبل قليل.

البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع[1]، للشوكاني (ت1250هـ)

محمد بن علي بن محمد الشوكاني، من كبار علماء اليمن. ولد بشوكان ونشأ وعاش بصنعاء[2]. ذكر ترجمة منسا "موسى بن أبي بكر" (314/2)، ولم يخرج فيما ذكره عما أورده ابن حجر في الدرر الكامنة. وقد عاش الشوكاني في اليمن في القرن الثالث عشر، بعيدا عن مكان الحدث، وبعيدا عن زمانه بخمسة قرون.

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى[3]، للناصري (ت1315هـ)

أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي، شهاب الدين السلاوي. ولد وتوفي في مدينة "سَلا" بالمغرب الأقصى[4]. ينقل أخبار منسا موسى وحجته عن ابن خلدون بمثل ألفاظه، وذلك في مواضع: تكلّم في أحدها عن منسا موسى (151/3)؛ فذكر عظمةَ مُلكه، وعلاقتَه بأبي الحسن المريني، وتبادل الوفود والهدايا بينهما، ثم ذكر أنه جلب من الحج أبا إسحاق الساحلي الذي بنى له قبة في عاصمته. وذكر في الموضع الثاني منسا موسى وخلفه منسا سليمان، والعلاقة بينهما وبين أبي الحسن المريني (34/4)، وأعاد ذكر بناء أبي إسحاق الساحلي القبة العجيبة. وكلامه في الموضع الثالث في سياق ذكر ممالك السودان (100/5–101)؛ فذكر مملكة "مالى" وملوكها، ومنهم منسا موسى، كما عند ابن خلدون.

---

(1) طبعة قديمة بمطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى 1348هـ.

(2) ترجمته في الأعلام للزركلي.

(3) تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب 1418 = 1997 الدار البيضاء.

(4) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي، (السلاوي).

النوع الثاني
مصادر لم تذكر بالنص منسا موسى وحجته

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق[1]، للإدريسي (ت560هـ)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله. وكتابه هذا في الجغرافيا، ألّفه لصاحب صقلية المسمى رجار (أو ريشار) النورمندي الفرنجي[2]، ويرد في بعض المصادر باسم "كتاب رجار"، ومؤلفه الإدريسي باسم "صاحب رجار".

أَوْرَدت الكتاب في بحث النسب العلوي لملوك مالى وغانة؛ فذكر هو النسب العلوي لملوك غانة (23/1).

كتاب الجعرافية[3]، للزُّهري، (توفي أواسط القرن السادس)

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

أوردته في سياق الكلام على النسب العلوي لملوك غانة ومالى؛ فقد ذكر هو أهل غانة (ص125)، وحدَّد سنة إسلامهم، وأنهم كانوا قبلها على الكفر.

معجم البلدان[4]، لياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ)

أوردته في سياق الحديث عن حجاج ملوك السودان قبل منسا موسى؛ فذكر حجَّ ملك "زافون" من بلاد السودان (127/3)، ومروره في طريق الحج بمراكش، في دولة المرابطين.

---

[1] عالم الكتب 1409 = 1989 بيروت.

[2] انظر: كشف الظنون 1947/2، ومقدمة المحقق.

[3] "الجعرافية" بالعين المهملة، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الإسلامية، شارع بورسعيد.

[4] نشر دار الفكر، بيروت – لبنان.

الجغرافيا[1]**، لابن سعيد المغربي (وفاته بين 653 و685هـ)**

في الجزء الثاني من أول أقاليم المعمورة، ذكر بلاد غانة (ص10)؛ فتطرق إلى إثبات النسب العلوي لسلطانها؛ فأوردته في سياق الكلام على النسب العلوي لملوك غانة ومالى.

تقويم البلدان[2]**، لصاحب حماه (ت732هـ)**

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، كان واليا على حماه لممالك مصر.

أوردته في سياق حديثي عن النسب العلوي لملوك مالى وغانة. ذكر هو النسب لملوك غانة (ص157).

المختصر في تاريخ البشر، للمؤلف السابق، صاحب حماه (ت732هـ)

وهو الكتاب الذي اختصره ابنُ الوردي، وذَيَّلَه من سنة 709؛ في تاريخه المذكور في النوع الأول.

ذكرت كتاب "المختصر" في كلامي على جماعة وصفهم منسا موسى، وذكر أنهم أعداؤه.

البحر المحيط[3] **في التفسير، لأبي حيان (ت745هـ)**

محمد بن يوسف بن علي الغرناطي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجياني. ولد سنة 654. أصله من الأندلس وإفريقية، ثم لحق ببلاد المشرق، وحَلَّ بالديار المصرية سنة 679، وبقي بها إلى أن مات. كان أبو حيان بمصر حين مرَّ منسا

---

[1] نسخة الكترونية من مكتبة المصطفى [www.al-mostafa.com]، وتوجد نسخة الكترونية أخرى في موقع الوراق [www.alwarraq.com].

[2] طبعة قديمة في باريس 1840م، اعتنى بتصحيح الكتاب رينود، جوزيف توسان وماك كوكين دي سلان. نشر دار صادر.

[3] دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1413=1993م.

موسى بمصر في طريق الحج، وذكر الصفدي في الوافي بالوفيات في ترجمة سراج الدين ابن الكُوَيك، التاجر السكندري الذي استدان منه منسا موسى في عودته؛ أنه كان يحضر حلقة أبي حيان[1].

تحدث أبو حيان في تفسير سورة الفتح (96/8) عن "أحَد مُلوك غانة مِن بِلاد التَّكْرُور"، ولم يُسَمِّه، لكنَّ وَصْفَه إياه يغلِّب على الظن أنه يقصد منسا موسى؛ فقد ذكر عنه أنه فتح أزيد من 25 مملكة من بلاد السودان، وأنه أتى ببعض هؤلاء الملوك معه في الحج. وذلك مذكور عن منسا موسى في مسالك الأبصار وغيره. وذكر أنه إمبراطور يحكم ممالك، وذلك – في القرن الثامن الهجري — سلطان بلاد مالى التي اشتهرت في مصر ببلاد التكرور وملكها بملك التكرور. يضاف إلى ذلك أن أبا حيان كان في مصر حين دخلها منسا موسى كما سبق.

ولم يكن أبو حيان يتكلم في سياق حديثٍ في التاريخ، وإنما كلامه عن منسا موسى في سياق تفسير قوله تعالى في الآية 20 من سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرةً﴾؛ فذكر أن الوعد قد أُنْجِزَ بفتوح البلاد الكثيرة، حتى بلغت الفتوح إلى بلاد الهند؛ أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقا، وإلى بلاد السودان؛ أقصى ما وصل إليه الإسلام غربا. فلعل هذا سبب عدم تفصيل أبي حيان، كعدم تصريحه مثلا باسم السلطان الذي ذكره. وأيضا فالظاهر من مصادر ترجمة أبي حيان أنه سمع قدوم منسا موسى من بعيد، وأنّه لم يكن من الأعيان المقرَّبين إلى سلطان مصر حين حجَّ منسا موسى، ولا من العلماء الذين التقوا به لما قدم مصر ومكث فيها أكثر من ثلاثة أشهر؛ فمولده ومنشأه ببلاد الأندلس، وخرج منها مطلوبا متخفيا من السلطان، فاستقر بمصر، وكان ظاهريا، فألفى المذهب الظاهري بها مهجورا، فأظهر الشافعية.

[1] انظر ترجمته في طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، والدرر الكامنة، والوافي بالوفيات.

الروض المعطار في خبر الأقطار[1]، للحميري[2]

ذكرته في معرض الكلام على النسب العلوي لملوك مالى وغانة.

تحدث هو عن النسب العلوي لملوك غانة (425/1).

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي[3]، للعصامي (ت1111هـ)

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي.

أوردت الكتاب بسبب ذكره النسب العلوي لملوك غانة (341/2)؛ فحين ذكر بني الحسن بن علي، ذكر منهم بني صالح، وأنهم كانوا ملوكا بغانة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى، وزاد أن عقبهم هنالك معروف.

---

(1) تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980م.

(2) وفاته غير محددة، وهو محمد بن عبد المنعم الحميري، كما في كتب الفهارس والأدلة، وذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية، ترجمة علم يحمل هذه الأسماء، وهو: محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميري أبو عبد الله السبتي، وذكر أن وفاته سنة 727، لكن لا يظهر أنه صاحبنا، مؤلف الروض المعطار. ونقل القلقشندي (ت821) في كتابه صبح الأعشى، عن الروض المعطار في مواضع كثيرة، ولم نجده سَمى مؤلِّف الروض في المواضع التي اطلعنا عليها، والله أعلم. انظر ترجمة الحميري في الأعلام للزركلي.

(3) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية 1419=1998 بيروت – لبنان.

مراجع التوثيق

وهي مراجع أوردتُها في الحاشية؛ لتحقيق وتوثيق ما ورد في الصلب، ولذكر أمور لها اتصال بالموضوع، لكنها لا تدخل حدود البحث أو لا يتوافر فيها شرطه الزمني، أوردها هنا بمناسبة ذكر المصادر، مرتبة على حروف المعجم:

- الآداب الشرعية، لابن مفلح، شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، (ت763)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، الطبعة الثالثة، 1419=1999م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالى 1230–1430، لأحمد شكري، نشره المجمع الثقافي، 1420=1999، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
- الأعلام، قاموس تراجم، تأليف خير الدين الزِرِكلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، 2002.
- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، للسلطان محمد بلو ابن السلطان عثمان بن فودي (ت1253). المملكة المغربية/ جامعة محمد الخامس– السويسي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية — الرباط/ سلسلة نصوص ووثائق، تحقيق بهيجة الشاذلي ط1 1996. وطبعة أخرى: نشرت سنة 1383=1964م بعناية لجنة مصرية وقع عنها علي عبد العظيم مدير إدارة الوثائق والمكتبات بوزارة الأوقاف.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي، أبي الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1410=1990م، بيروت، لبنان.

- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي (902)، نشره أسعد طرابزوني الحسيني، 1399=1979م.
- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكُناهم، لابن ناصر الدين الدمشقي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، الطبعة الأولى.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الأولى 1387=1967م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي (ت799)، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- رحلة ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد الأندلسي (ت614)، طبعة دار صادر، بيروت.
- رسوم دار الخلافة، للصابئ، أبي الحسين هلال بن المحسن (ت448)، تحقيق ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، 1986م، بيروت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد، (ت 1089)، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، 1406، دمشق.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسَّخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1413، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو.

- طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، أبي بكر بن أحمد بن محمد، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1407.
- غمز عيون البصائر (شرح كتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم)، للحموي، أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد مكي الحسيني الحنفي (ت1098)، تحقيق أحمد بن محمد الحنفي الحموي، دار الكتب العلمية، 1405=1985م، بيروت.
- الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزُّحَيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1405=1985م،
- مجموع فتاوى ابن تيمية، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم (ت728)، طبعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.
- مروج الذهب ومحاسن الجوهر، لأبي الحسن علي بن عبد الله المسعودي (ت364)، وهو بهامش "نفح الطيب" للمقري، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية، مصر، 1302.
- المعجم الوسيط، إخراج مجمع اللغة العربية، مصر، الطبعة الرابعة، 1425=2004م، نشر مكتبة الشروق الدولية.
- معجم لغة الفقهاء، وضعه د. محمد رواس قلعه جي، ود. حامد صادق قنيبي، دار النفائس، الطبعة الثانية 1408=1988م، بيروت، لبنان.
- المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمَغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، لأبي عبيد البكري (ت478)، مكتبة المثنى، بغداد.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي، أبي المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي، (ت874)، تحقيق د. محمد محمد أمين، ود. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت874)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1431=1992م.

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لشمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (شيخ الربوة)، طبعة قديمة، ليبزغ، ألمانيا 1923.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذِكْر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري [ت1041]، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية، مصر، 1302.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (ت681)، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

مراجع توثيق بغير العربية

- تاريخ مَنْدِى، تأليف العلامة سليمان كَنْتِي KANTE، نَسَخَهُ الأستاذ بابا جانى عام 1991، ونَشَرَه بمصر عام 1994. (بلغة وحروف أُنكُو).
- دولة سودانية في القرون الوسطي مجهولة: مملكة زافونُ"، لتادِوز لويشكي، نشر في "كاييه دِيتُود أفْرِيكِين" رقم44 من المجلد11، عام 1971 (بالفرنسية).

Un État soudanais médiéval inconnu: le royaume de Zāfūn(u), Tadeusz Lewicki, in: Cahiers d'études africaines. Vol. 11 N°44. 1971

- المصادر العربية المتعلقة بإفريقيا الغربية من القرن الثامن إلى السادس عشر، جوزيف كوك. باريس 1985. وقد اطلعت عليه بعد الطبعة الأولى. (بالفرنسية)

Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe siècle, Joseph M. CUOQ, Centre National de la Recherche Scientifique (CNRS), Paris 1985.

- معجم روبرت للأعلام، طبعة سبتمبر 1994 (بالفرنسية):

LE ROBERT DES NOMS PROPRES, 27, RUE DE LA GLACIERE, SEPTEMBRE 1994.

الفصل الأول
مَنْسا موسى: السُّلطان

اسمه: موسى

اتفقت مصادرنا على أن هذا اسمه. و"موسى" علم لم يزل شائعا في أسماء رجال مسلمي مناطق نفوذ مالى وكل بلاد السودان، مثل سائر أسماء الأنبياء والصحابة، وهو من الأسماء القليلة التي سَلِمتْ من التغيير، كما حصل في كثير من الأسماء العربية والمعرَّبة التي ظهرت في بلاد السودان مع الفتح الإسلامي؛ ولعله بسبب مجيئه على حرفين صامتين جاء مخرجهما على مخارج لسانها.

اسم أبيه أو جده: أبو بكر

تذكر مصادرنا بعد اسمه؛ اسما ثانيا هو: "أبو بكر"؛ فيحتمل أن يكون اسم والده المباشر، ويحتمل أن يكون اسم جدّه، أخو سُنْجَتَ لأبيه، وهو المسمّى مَنْدِنْبُرِ [MANDENBORI] أو مَنْدِنْبُكَرِ [MANDENBUKARI]. والنسبة إلى أحد الأجداد أمر شائع ومشهور في الثقافة العربية الإسلامية، خاصة في تلك العصور، مثل ابن فضل الله وابن الوردي وابن كثير وابن حجر وابن خلدون؛ وكل هؤلاء من مؤلِّفي مصادرنا الذين ذكروا منسا موسى، وانظر مثلا إلى قول ابن خلدون: "ثم انْتَقَلَ مُلْكُهُم مِن وَلَد السُّلْطان مارِي جاطَة إلى وَلَد أخِيه أبي بكر؛ فَوَلِيَ عَلَيْهِم مَنْسا مُوسى بنُ أبي بَكر"[1].

---

[1] تاريخ ابن خلدون 264/6–470. ويؤيّد الاحتمال الثاني أن العلامة سليمان كَنْتِي نفى نفيا قاطعا أن يكون "أبو بكر" والدَ منسا موسى، ونقل عن رواة تاريخ مالى؛ أن منسا موسى، وسَلَفه في الحكم (منسا أبو بكر) وخَلَفه بعد ابنه (منسا سليمان)؛ ثلاثتهم أولاد أب، واسم أبيهم: سُنْفَكَا لايِ [SONFAKA LAAYI]. انظر: تاريخ مَنْدِى 73/3. ويحتمل أن تكون صعوبة النطق باسم أبيه (سُنْفَكَ لايِ) – على ما ذكره العلامة سليمان كَنْتِي – سببا في عدم ذكره في المراجع العربية، والاستعاضة عنه بذكر جده؛ والد أبيه، ويحتمل أيضا أن عادة نسبة الشخص إلى أحد أجدادهِ، كانت متّبعة في بلاد مالى كذلك. والله أعلم.

وانفرد ابن حجر بذكر اسم ثالث بعد "أبي بكر"، فقال: "موسى بن أبي بكر سالم التَّكْرُوري"[1]، وتبعه الشوكاني، لكنه قال: "موسى بن أبي بكر بن سالم"[2]؛ فجعل سالما أبا لأبي بكر. ولا يسهل اعتماد هذا؛ لانفرادهما عن سائر مصادرنا، وتأخرهما عن زمان الحدث.

اسم أُمّه: كَنْكُ

ذكره ألفَع محمود كعت، قال: "وكَنْكُ عَجَمِيّة، وقِيلَ إنها عَرَبِيّة الأصْل"[3].

ويحتمل كلام مؤلف الفتاش أن والدة منسا موسى (نانا كنك) ترجع إلى أصول عربية، ويؤيد هذا الاحتمال تعبيرات كثيرة مشابهة في مواضع من الفتاش، مثل "وَعْكُري الأصل"، "زغراني الأصل"، "برماوي الأصل"، ونحوها، وكلها راجعة لأصل النسب.

والاحتمال الآخر أن "كنك" قيل إنها كلمة عربية في أصلها .

والذي يظهر لنا أن الكلمة عجمية؛ فلم أجد في كتب الأعلام والتاريخ والأنساب والبلدان عَلَماً بهذا اللفظ، إلا نهر "كنك"، ذكره بهذا الرسم ياقوت الحموي والحميري[4]، وهو النهر المعروف بنهر "كَنْجْ"، بالكاف الفارسية في

---

[1] الدرر الكامنة 383/4-384.

[2] البدر الطالع 314/2.

[3] تاريخ الفتّاش ص32-33، ووقع ضبط الاسم فيه بضم الكاف الأولى والثانية، ويسمع ذلك على لسان بعض رواة تاريخ بلاد مالى، بضمة ممالة في الحرفين، بينهما نون مخفاة [GBONKO] والحرف الأول في هذه اللهجة، يحاكي صوتا لا مقابل له في الأصوات العربية، ويوجد في لهجة أخرى عوض الحرف المذكور حرف الباء: بُنْكُو [BONKO]. هذا وقد ضَبَطَ الاسمَ العلامةُ سليمان كَنْتِي في تاريخ مَنْدِى 73/3؛ بفتح الكاف الأولى، وضم الكاف الثانية ضمة صريحة، وبين الكافين نون مخفاة [KANKU]، ويوجد الاسمان في نساء مناطق نفوذ مالى إلى اليوم. والله أعلم.

[4] انظر: معجم البلدان 484/4، والروض المعطار ص496، وهو عند غيرهما بهجاء آخر؛ فالمسعودي في ←

الحرف الأول (Gange)، وهو أهم نهر في شمال شبه القارة الهندية، ينبع من غرب جبال الهملايا ويصب جنوبا في خليج البنغال في المحيط الهندي، وهو نهر مقدّس عند الهندوس[1]. وكل هذا يُوهِن الأصل العربيّ لاسم "كنك" على الاحتمالين، ويقوي ما صدَّر به ألفع محمود الكلام بأنها عجمية. والله أعلم.

ويَرِد العَلَم عند السَّعدي بنونٍ متطرفة: كنكن موسى[2]. ولعلها نون مخفاة نشأت من تركيب الاسمين، على قواعد بعض الألسنة المحلية. والله أعلم.

واشتهر منسا موسى في الروايات الشفهية بأنه: كنك موسى [KANKU MUSA]، بتركيب اسمه مع اسم أُمِّه، وهو عُرْفٌ جارٍ في مناطق نفوذ مالى وغيرها من بلاد السودان، إما بتقديم اسم الأُم كما هنا، أو بتقديم اسم الولَد؛ والداعي إلى هذا التركيب دفعُ الاشتباه الناشئ من التكرار المتوقَّع في أسماء أفراد البيت الواحد، بل في أسماء أبناء الرجل الواحد من زوجات متعددات.

ومن أسماء النساء في بلاد مالى، ويشبه الاسم المذكور هنا: كَنْجَا [KANJA]. ذكر ابن بطوطة في رحلته نائبا لمنسا سليمان، يكون معه عند جلوسه في القبة السلطانية، وسماه: قنجا موسى[3]، وهو من التركيب المشار إليه هنا [KANJA MUSA].

لقب السلطنة: مَنْسا

ويُذكر اسمه مقرونا بلقب السلطنة في مالى: "مَنْسا". ذكره ابنُ فضل الله العمري وابن بطوطة وابن خلدون والقلقشندي والمقريزي (في كتابه السلوك)

مروج الذهب 114/1 سماه: "نهر جنجس".

[1] انظر: معجم روبرت للأعلام [LE ROBERT DES NOMS PROPRES].

[2] تاريخ السودان ص7، 8.

[3] رحلة ابن بطوطة 239/2.

والسعدي. ولم يذكره النويري والذهبي وابن الوردي والصفدي وابن كثير، ولم يذكره كذلك اليافعي[1] وابن حجر وابن إياس في بدائع الزهور.

أما ألفع محمود كعت فلم أجده أطلق اللقب المذكور على السلطان موسى، لكنه ذكره كثيرا لغيره من السلاطين، ويرسمه (مَنْسَ) بدون الألف المتطرفة، على طريقته في رسم أعلام بلاد السودان بالحرف العربي.

وأغلب المصادر التي ذكرت اللقب المذكور تُقدِّم لقب السلطنة على اسم السلطان: منسا موسى، أما ابن فضل الله العُمَري فيؤخره: موسى منسى[2]. وترسم بألف مقصورة (منسى)، وبألف ممدودة (منسا)، ويوجد الرسمان في غالبها.

ونَصَّ القلقشندي أن معنى "منسا": السلطان[3]. ويورد ابن فضل الله وغيره اللقبَ بالعربية: السلطان موسى[4]، ويجمع بعض المصادر بينهما: السلطان منسا موسى[5]. ولَمْ يَزَل اللقب كما وردَ في مصادرنا، في بعض لهجات مناطق نفوذ مالي؛ بفتح الميم ثم نون مخفاة ثم سين مفتوحة [MANSA]، وفي بعض اللهجات بدون النون المخفاة: مَسَا [MASA].

لقب آخر له: شرف الدين

وعند ابن الوردي والصَّفَدي لقب آخر له، وهو "شَرَف الدِّين"[6]، ووقع

---

[1] ظهر في أكثر من موضع تشابه ألفاظ اليافعي والوردي والصفدي وابن كثير؛ بألفاظ الذهبي في كتابه "العبر في خبر من غبر".

[2] مسالك الأبصار 107/4، 126، والتعريف بالمصطلح الشريف ص27؛ كلاهما لابن فضل الله العمري.

[3] صبح الأعشى 282/5، 8/8.

[4] مسالك الأبصار 107/4، 118، 119، 120، 122، 125...

[5] مسالك الأبصار 126/4، ورحلة ابن بطوطة 237/2، وتاريخ ابن خلدون 464/6-470، وتاريخ السودان ص8.

[6] انظر: تاريخ ابن الوردي 266/2، وأعيان العصر 477/5.

عند ابن كثير: الملك الأشرف[1].

ولعلهما مأخوذان من ألقاب الكتابة في ديوان سلاطين مصر؛ فقد ذكر ابن فضل الله أن الكتابة إلى سلطان مالى بلقب "شرف ملوك الأنام"[2]. أو يكون حَدَثَ التباسٌ في البداية والنهاية لابن كثير؛ فإن من سلاطين المماليك: الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، وأبوه (أبو بكر) هو الملقب بالعادل، وهو أخو صلاح الدين الأيوبي، وكان الملك الأشرف سلطانا على دمشق لأخيه الملك الناصر محمد بن أبي بكر، توفي سنة 635، ذكره ابن كثير وغيره[3].

بَيْتُ السلطنة

البيت الذي ينتمي إليه منسا موسى، بَيْتٌ حَكَم مملكة مالى عدة قرون، وحوَّلها من مملكة كانت تابعة لإمبراطورية غانة ثم وقعت تحت سيطرة صوصو، إلى إمبراطورية مترامية الأطراف ذات سمعة بعيدة وقوة كبيرة. وكَيْتَا [KEYTA] هو الاسم الذي يشترك فيه كل مَن ينتمي إلى هذا البيت، وهو بيتٌ مشهور يَستمرُّ في الانتساب إليه إلى عصرنا هذا مئاتُ الآلاف من البشر في أكثر من شعب من شعوب مناطق عدة في الدول الحديثة: مالى وغينيا والسنغال وكوت ديفوار (ساحل العاج) وغامبيا وبوركينا فاسو، وغيرها من دول غرب إفريقيا الحديثة التي كانت أراضيها تقع في مناطق نفوذ مَمالِك منسا موسى.

---

[1] البداية والنهاية 18/240-242.

[2] التعريف بالمصطلح الشريف ص28.

[3] ذكر ابن كثير وفاته في بداية حوادث سنة 635، (البداية والنهاية 17/231)، وذكره في مواضع أخرى من كتابه، منها: 8/372. وانظر ترجمته في السلوك للمقريزي، وفيات سنة 635، وممن تلقّب بالملك الأشرف من سلاطين المماليك: الملك الأشرف علاء الدين ابن الملك الناصر ابن الملك المنصور، توفي سنة 746، ذكره الصفدي في أعيان العصر 4/148.

ويركَّب الاسم في مناطق نفوذ مالي من الاسم الخاص بالمدعو، ثم من اسم البيت الذي ينتمي إليه، وقد يقدَّم عليهما اسم والدة المدعو، فيقال: موسى كَيْتَا [MUSA KEYTA]، أو كَنْكُ موسى كَيْتَا [KANKU MUSA KEYTA].

لم تتطرق مصادرنا كلها – ولو إشارة – إلى اسم البيت الذي ينتسب إليه منسا موسى (كَيْتَا)! أما تركيب اسمه مع اسم والدته (كَنْكُ موسى)، فلم يذكر إلا في تاريخ الفتّاش وتاريخ السودان، على قُرب مؤلفهما من مَوطن منسا موسى، وتَشَكُّل بلادهما جزءا من ممالكه في عصره، وإنْ بعد عصرهما عن زمن الأحداث بأكثر من قرنين من الزمن. وغياب هذين الأمرين في مصادرنا – على ما سبق – أمر مثير لكثير من التساؤل، ويفتح أبوابا من البحث والفرضيات! فهل الانتساب بذكر أسماء البيوت، وتركيب الاسم مع اسم الأم؛ من دواخل شؤونهم التي ضنوا بها على غير أهلها ولم يشاؤوا أن يشيعوها في غيرهم؟

دَعوى النَّسَب العَلَوِيّ

ادِّعاء سلطان مالي النَّسبَ العلوي، انفرد بذكره ابن فضل الله العُمَري في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف"[1]، ولم يذكره في كتابه الآخر "مسالك الأبصار"، في الموضع الذي خصَّ فيه الحديثَ عن بلاد مالي، وأفاض في ذكر أحوالها وأخبار سلاطينها.

ونقله عنه القلقشندي في "صبح الأعشى"[2]، ثم نقل عن صاحب حماه في كتابه تقويم البلدان؛ ادعاء سلطان غانة النسبَ العلوي؛ فرفع التعارض بينهما بترجيح ما ذكره ابن فضل الله؛ حاملا ما ذكره صاحب حماه على أنه قد يقصد

---

(1) ص27.

(2) صبح الأعشى 286/5، 8/8.

سلطانَ مالي؛ من باب تسمية السلطان ببعض بلاده، كما يطلق على سلطان مالي: صاحب التكرور أو ملك التكرور، فأُطلق عليه: "صاحب غانة"[1]، لأن غانة من الممالك التابعة له[2].

أما في كتابه "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، فإنما ذكر القلقشندي في موضعين منه[3]؛ دعوى النسب العلوي لملوك غانة لا لسلاطين مالي، ولم يتطرق مطلقا لادعاء سلطان مالي النسبَ العلوي، ولا قارَن بين النُّقول كما فعل في صبح الأعشى، بل إنه في نهاية الأرب نقل عن الإدريسي، بخلاف صبح الأعشى؛ فإنه نقل فيه عن صاحب حماه، وهو متأخر عن الإدريسي بنحو قرنين؛ فسهل على القلقشندي في صبح الأعشى، ترجيحُ قول ابن فضل الله على قول صاحب حماه المتأخر، وعزَّ عليه الترجيح على قول الإدريسي في نهاية الأرب.

والعجيب أن القلقشندي، أشار في صبح الأعشى إلى كتابه "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب"؛ في موضعين[4]، وذكر كتابه "صبح الأعشى" في نهاية الأرب في ثلاثة مواضع[5]، لكن في موضع الكلام على النسب العلوي فيهما لم يشر في

---

[1] وهذا الاحتمال الذي ذكره القلقشندي؛ حصل لأبي حيان في تفسيره 96/8؛ سمّى منسا موسى "أحد ملوك غانة من بلاد التكرور". ولعل تخصيصه مُلك منسا موسى ببلاد غانة؛ راجع إلى بُعده عن التاريخ والممالك التي عاصرها في مصر؛ وأصله من الأندلس ودخل مصر فارا من أحد سلاطينها، ولم يظهر لنا في مصادرنا أنه التقى بمنسا موسى، مع وجوده في مصر حين مر بها.

[2] هذا ما ظهر لنا من كلام القلقشندي في هذا الموضع، ويحتمل غير ذلك. فلينظر!

[3] ص128، 311.

[4] أحدهما قوله في صبح الأعشى (14/5): "وقد بَسَطْتُ القولَ على ذلك في كتابِي المُسَمَّى بنهاية الأرب في معرفة قبائل العرب"، والآخر قوله فيه (209/7): "ووقع بسط الكلام على ذلك وغيره في كتابنا المسمى نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب".

[5] 40/1، 52، 72.

أحدهما إلى الآخر مطلقا، مع تدافعهما.

وأمر آخر أن القلقشندي يكثر النقل عن تاريخ ابن خلدون؛ ولكنه لم يشر إليه في هذه المسألة. وابن خلدون إنما ذكر النسب العلوي لملوك غانة خاصة دون ملوك مالى، وذلك في ثلاثة مواضع من كتابه، كما سيأتي.

وما ذكره القلقشندي في كتابه "نهاية الأرب" هو الموافق لما في أقدم وأكثر المصادر؛ فإنما نَسبت تلك المصادر ادّعاء النسب العلوي إلى صاحب غانة؛ يبدأ ذلك بالإدريسي (ت560)[1]، ويستمر بابن سعيد المغربي (ت685)[2]، وبصاحب حماه (ت732) والصَّفَدي (ت764)[3]، وبابن خلدون (ت808) والقلقشندي (ت821) (في كتابه نهاية الأرب) والحميري[4]، ويصل إلى العصامي (ت1111)[5]. بل لَمّا تحدَّث ابن خلدون عن منسا سُنْجَتَا من سلاطين مالى، وهو أخو جَدّ

---

[1] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 3/1.

[2] قال في كتابه "الجغرافيا" عند كلامه على الجزء الثاني من الإقليم الأول من أقاليم المعمورة، ص10 "ومدينة غانا على ضفتي النيل.. وبها يَحلّ سلطان غانا وهو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما.. وهو كثير الجهاد"، ونقله عنه الصفدي في الوافي بالوفيات 152/16؛ من كتاب آخر له: "كنوز المطالب في آل ابن أبي طالب"، وأسلوب ابن سعيد فيهما بالجزم، لكن ما نقله الصفدي عنه من كنوز المطالب يحتمل أن يكون كلامه منقولا عن الإدريسي، وعباراته في كتابيه "كنوز المطالب"، على ما نقل الصفدي، و"الجغرافيا"؛ متقاربة، وكتابه "كنوز المطالب" كتاب في بيان نسب العلويين، ولم أقف عليه ولا على خبره. وابن سعيد هو علي بن موسى بن سعيد المغربي، قدم من المغرب وجال في مصر والعراق والشام، من مصنفاته: المُغْرِب في أخبار المَغْرِب، والجغرافيا، وكنوز المطالب في آل أبي طالب، اختلف في وفاته في سنواتٍ آخرها وأظهرها سنة 685. انظر ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي 157/22، والديباج المذهب لابن فرحون 112/2، والأعلام للزِرِكلي.

[3] انظر: تقويم البلدان لصاحب حماه ص157، والوافي بالوفيات للصفدي 151/16.

[4] انظر: تاريخ ابن خلدون في ثلاثة مواضع: مقدمته ص67، وتاريخه 4/126-127، 5/495-496، والروض المعطار ص425 (غانة)، ونهاية الأرب ص128، 311.

[5] انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي 341/2.

منسا موسى لأبيه، وسمّاه "مَلِكهُمْ الأَعْظَم"، وذكر أنه هزم صوصو وانتزع مُلك مالى من أيديهم؛ قال: "ولم يَتَّصِلُ بِنَا نَسَبُ هَذا المَلِك"[1]. فهذا ينفي علمه بادعاء سلاطين مالى النسب العلوي.

وما ذكره جمهور المصادر يترجّح على ما ذكره ابن فضل الله في كتابه "التعريف"؛ لانفراده بذلك عن سائر المصادر، بل عن كتابه "مسالك الأبصار"، وهو أكْبَر أهمية وأكْثَر تفصيلا وأمْتَن نقلا؛ في ذِكر بلاد مالى وسلاطينها، وقد ذَكَر فيه أمورا خاصة ودقيقة عن منسا موسى، نَقَلَها عن أمراء من دولة المماليك، توثَّقت صِلتهم بمنسا موسى، حين مرّ بمصر في طريق حجه؛ فالخطأ فيما ذكره ابن فضل الله في "التعريف"، أقرب منه إلى غيره، وأن ما ذكره غيره لصاحب غانة أثبتَه هو لسلطان مالى؛ والنسب الذي ساقه هو والقلقشندي الناقل عنه، منسوبا لسلطان مالى؛ هو مثل النسب الذي أثبته غيره لصاحب غانة.

دعوى النسب العلوي لسلطان غانة

هذا، وإن النسب العلوي لصاحب غانة مشكوك فيه كذلك، وليس ظاهرا، ولا هو بالأمر الذي يُعْتَمَد، لوجوه:

الوجه الأول: ان كتاب "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري المتوفى سنة 470؛ هو أقدم وأوسع وأوثق مصدر معروف إلى الآن، في ذكر غانة وسلاطينها[2]، ومؤلفه (البكري) توفي تسعين سنة قبل الشريف الإدريسي (ت560) مؤلف "نزهة المشتاق"، أول مَنْ نَعْرِفه نقل ادعاء النسب العلوي لسلطان غانة؛ ومع هذا فليس عند البكري ذكرُ نسبٍ علوي لملوك غانة، ولا الإشارة إلى ذلك، بل إنما

[1] تاريخ ابن خلدون 264/6–270.

[2] بدأ البكري الكلام عن غانة في فصل خاص من كتابه ص174، وتطرق إليها في مواضع أخرى منه.

فيه أن غانة على "المجوسية" (الوثنية) وعبادة الأصنام، وأن الإسلام بدأ ينتشر فيها، وقد نقل البكري مِن تفاصيل أسماء ملوكها وأحوال أهلها في ديانتهم واجتماعهم، ما لو كان ثمة شيء يعلمه مِن ادِّعائهم أو ادِّعاء سَلَفهم في المُلك، النسبَ العلوي؛ لكان ذكر ذلك متحتما.

الوجه الثاني: ان أول من أورد ذلك مِن مصادرنا، ذكره بأسلوب المشكوك فيه، وتابعه مَن جاء بعده في التشكيك والتضعيف: فعبارة الشريف الإدريسي: "ومَلِكُها – فيما يُوصَف – مِن ذُرِّيّة صالح بنِ عبدِ الله بنِ الحَسَن بنِ الحَسَن بنِ عَلِيّ بنِ أبي طالِب، وهو يَخْطُب لِنَفْسِه، لَكِنَّهُ تَحْتَ طاعَةِ أمِيرِ المُؤْمِنِينَ العَبّاسِيّ"؛

وعبارة صاحب حماه: "سُلطان بِلادِ غانة، يَدَّعِي أنّه مِن نَّسْلِ الحَسَن بنِ عَلِيّ عَلَيْهِما السَّلام"[1]؛

وقال ابن خلدون في الموضع الأول من المواضع الثلاثة التي ذكر فيها النسب العلوي لصاحب غانة: "فَكانَ فِي غانة – فِيما يُقال – مُلكٌ ودَوْلةٌ لِقَوْمٍ مِنَ العَلَوِيّين، يُعْرَفون بِبَنِي صالِح..، وَلا يُعرَف صالِح هَذا فِي وَلَد عَبْدِ اللهِ بنِ حَسَن. وَقَدْ ذَهَبَت هَذِهِ الدَّوْلةُ لِهَذا العَهْد، وَصارَتْ غانة لِسُلطان مالى"؛ وقال في الموضع الثاني: "وكان بِمَدِينة غانة، مِن بِلاد السُّودان بِالمَغْرب، مِمّا يَلِي البَحْر المُحِيط؛ ملكُ بَنِي صالِح.. ولم نَقِف عَلى نَسَبِ صالِح هَذا مِنْ خَبَرٍ يُعوَّلُ عَلَيْه، وَقالَ بَعْضُ المُوَرِّخِين: إنَّهُ صالِح بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُوسى بن عَبْدِ اللهِ، المُلَقَّب أبا الكِرام، ابن موسى الجَوْن.. وَلَمْ يَذْكُر ابْنُ حَزْم فِي أَعْقابِ مُوسى الجَوْن صالِحاً هَذا بِهَذا النَّسَب، وَلَعَلَّه صالِحُ الَّذي ذَكَرْناهُ آنِفاً فِي وَلَد يُوسُفَ بنِ مُحَمَّد الأُخَيْضِر، والله أعلم"؛ وقال في الموضع الثالث، عقب نقله عن الإدريسي:

[1] تقويم البلدان ص157.

"ولم يَقَعْ لَنا فِي تَحْقِيق هَذا الخَبَرِ أَكْثَرُ مِنْ هَذا، وصالح مِنْ بَنِي حَسَن مَجْهُول، وأَهلُ غانة مُنْكِرون أنْ يَكُون عَلَيَهْم مُلْكٌ لِأَحَدٍ غَيْر صُوصُو"[1]؛

وقال الحِميري في ذكر غانة: "ومَلِكُها – فيما يُذكَر – مِنْ ذُرّيّة صالح بنِ عبد الله.."[2].

الوجه الثالث: ان دعوى النسب العربي أو العلوي ذُكِرت لغير صاحب غانة من سلاطين بلاد مسلمي السودان، وهي دعاوى مشكوك فيها:

فقد ذكر ابن فضل الله في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" صاحب كانم، وقال: "مِنْ بَيْتٍ قَدِيمٍ في الإسلام، وجاء مِنْهم مَن ادَّعَى النَّسَب العَلَوِيّ في بَنِي الحَسَن"[3]. وقوله: "وجاءَ مِنْهم" بعد قوله "مِن بَيْتٍ قَديم في الإسلام"؛ يدل على أن الادّعاء متأخر فيهم، وأنه لم يكن في سلفهم الذين أسلموا قديما.

وذكر القلقشندي ملك البرنو، وأنّه وَصَل منه إلى مصر كتابٌ في أواخر عهد السلطان برقوق (ت801)[4]؛ قال: "إنَّ مَلِكَ البُرْنُو مِن مُلُوكِ السُّودان، كَتَبَ كِتاباً إِلى الأبوابِ السُّلْطانِيّة بِالدِّيارِ المصْرِيّة.. قالَ: وَنَحْنُ مِنْ ذُرِّيّةِ سَيْفِ بنِ ذِي يَزِن[5] العَرَبِيّ القُرَشِيّ؛ فَخَلَطَ القَحْطانِيّةَ بِالعَدْنانِيّة؛ لِأنَّ سَيْفَ بنَ ذِي

---

[1] يشير إلى ما قرره هو وغيره من أن مملكة غانة لما سقطت صارت – مع مملكة مالي – تحت سطوة سلطان صوصو، إلى أن هزمه سُنْجَتَا وانتزع من يده مالي وغانة، وشكَّل منهما ومن غيرهما الإمبراطورية الواسعة التي ورثها منسا موسى وغيره.

[2] الروض المعطار للحميري ص425 (غانة).

[3] ص29، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 281/5، ومثله 8/8.

[4] برقوق بن آنص بن عبد الله الجركسي العثماني، ترجمته في إنباء الغمر لابن حجر.

[5] سيف بن ذي يَزِن من ملوك اليمن، وفي عهده غزا الحبشةُ بلادَ اليمن؛ فاستنجد هو بالفرس حتى أجلاهم عن بلاده، فأتته وفود العرب مهنئين، وكان في وفد قريش عبد المطلب جدُّ النبي، وذلك سنتين بعد مولده صلى الله عليه وسلم. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، باب إخبار الأحبار بنبوّته والرهبان 441/3، وانظر منه: 453/35، وانظر: مختصره لابن منظور.

يَزِن، مِن بَقايا التَّبابِعة مِنْ حِمْيَر مِن القَحْطانِيّة، وقُرَيشٌ مِن العَدْنانِيّة، وناهِيكَ بِذلِكَ عَيْباً"[1].

الوجه الرابع: أن النسب المذكور قد سيق في المصادر باختلافٍ في الأسماء وترتيبها:

أما الإدريسي، وهو أول من ذكره؛ فذكر النسب إلى "صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[2]؛

وأما الصَّفَدي فالذي ذكره أنه: "صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[3]؛

وأما ابن خلدون فبعد أن وهَّنَ ما ذكره غيره في حقيقة صالح المذكور؛ ذكر احتمالَ أنّه: صالح بن يوسف بن محمد الأُخَيْضِر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجَوْن بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[4]؛

وأما ابن فضل الله الذي ذكر النسب العلوي لملوك مالي؛ فذكر "عبد الله بن صالح" وقال: "عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب"[5] واستدرك القلقشندي فعكس وذكر "صالح بن عبد الله"، وقال: "قالَ فِي التَّعْرِيف: وَصاحِبُ التَّكْرُور هَذا يَدَّعِي نَسَباً إِلى عَبْدِ اللهِ بنِ صالِح بنِ الحَسَن بنِ عَلِيّ بنِ أبي طالب كرَّم الله وجوههم. قُلْتُ [القول للقلقشندي]: هُو صالِح

---

[1] صبح الأعشى 358/1، وكره أيضا في: 269/5، وأتى بنص كتابه في: 119/8.

[2] نزهة المشتاق 3/1، ومثله في الروض المعطار للحميري ص425 (غانة)، وصرّح بالنقل عن الإدريسي ابنُ خلدون في مقدمته (مع الجزء الأول من التاريخ) 70/1.

[3] الوافي بالوفيات 151/16.

[4] انظر: تاريخ ابن خلدون 126/4-127، وقد ذكر النسب الآخر في موضع آخر 144/4.

[5] التعريف بالمصطلح الشريف ص27.

بنُ عَبدِ اللهِ بنِ مُوسى بنِ عَبدِ الله أبي الكرام بنِ مُوسى الجَون بنِ عَبْدِ الله بنِ حَسَن المُثَنَّى بنِ الحَسَن السِّبْط بنِ أَمِيرِ المُؤمِنِين عَلِيّ بنِ أبي طالِب رضي الله عنه"[1].

الوجه الخامس: ما ذُكر أن مملكة غانة تأسّست قبل البعثة النبوية[2]؛ فكيف يُصْبِح مؤسِّسَها مِن نَسْل رَجلٍ من أحفاد علي بن أبي طالب؟!

ولـمّا تعارضت لدى القلقشندي الأقوال في نسبة ملوك غانة أو ملوك مالي إلى آل علي بن أبي طالب؛ ذكر احتمالا لتقوية ما ذكره ابن فضل الله، وهو أن بني صالح أسَّسُوا غانة ثم فقدوها وسيطر عليها كفارٌ من السودان[3]؛ فجعل غانة أسست على الإسلام ثم استولى عليها الكفر؛ حتى يتفق ما ذكره ابن فضل الله مع ما ذكره البكري وغيره أن ملوك غانة يدينون بالوثنية.

ويبعد هذا الترتيب ما ذكره هو نفسه في موضع الكلام على غانة[4] – نقلا عن ابن خلدون في تاريخه – أن أهل غانة "قَدْ أَسْلَمُوا فِي أَوَّلِ الفَتْحِ الإِسْلامِيّ"[5]. وما ذكره قبله أبو عبد الله الزهري (من علماء القرن السادس) في كتاب "الجعرافية"، لما أتى على ذكر بلاد السودان؛ قال: "وفِيهِ مَدينة غانة.. وأهْلُ هَذِه البِلادِ كانوا يَتَمَسَّكُون فِيما سَلَفَ بِالكُفر، إلى عام ستّة وتسعين

---

[1] صبح الأعشى 286/5.

[2] في تاريخ الفتّاش ص41 أنه مضى من ملوكهم قبل البعثة عشرون ملكا، وفي تاريخ السودان للسعدي أنه مضى منهم قبلها اثنان وعشرون ملكا.

[3] وينظر إذا كان مثل هذا هو مبدأ القول بأن ملوك غانة بيضان في الأصل، ذكر ذلك السعدي في تاريخ السودان ص8، لكنّ الذي هنا احتمال مجرد، ذكره القلقشندي حلا للتعارض الحاصل في النُّقول في شأن النسب العلوي.

[4] صبح الأعشى 274/5.

[5] في تاريخ ابن خلدون 495/5-496.

وأربعمائة [496]، وذلكَ عَنْدَ خُروج يَحْيَى بن أبي بَكْر أمِير مَسُوفة[1]، وأَسْلَمُوا.. وحَسُنَ إسلامُهم، وهُم اليَوْمَ مُسْلِمُون، وعِنْدَهم العُلَماءُ والفُقَهاءُ والقُرَّاء، وسادُوا في ذلك، وأَتَى مِنْهم إلى بِلادِ الأندلس رُؤَساءُ مِن أكابِرِهم، وسارُوا إلى مَكَّة وحَجُّوا وزاروا، وانْصَرَفُوا إلى بِلادِهِم، وأَنْفَقُوا أمْوالاً كَثِيرةً في الجِهاد"[2].

فالذي يظهر هو عكس ما ذكره القلقشندي. فملوك غانة كانوا على غير الإسلام، ثم بدأ الإسلام يدِبُّ فيها من أول دخول الإسلام إلى بلاد السودان، حتى انتشر فيها وعَمّ في القرن الخامس.

الوجه السادس: ان التشكيك في دعوى النسب العلوي امتدَّ إلى سلاطين مالى كذلك، فيما انفرد بذكره ابن فضل الله العُمَري في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف؛ فقد ذكر أن الخطاب الصادر من سلاطين المماليك في مصر إلى سلطان مالى لا يكون فيه شيء يؤيّد دعواه النسب العلوي، قال: "ولا يُعرض لَهُ، ولا يُقَرُّ بِشَيْءٍ مِن الألْقاب الدّالَّة عَلى النَّسَب العَلَوِيّ"[3].

---

[1] يعني المرابطين، فالمقصود سقوط الحكم الوثني وتحول الدولة للإسلام.

[2] الجعرافية لأبي عبد الله الزهري، ص125، وبداية الكلام على بلاد السودان ص119.

[3] التعريف بالمصطلح الشريف ص27، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 9/8.

وثمة فرضيةٌ نطرحها هنا للبحث والنظر، وهي أنه قد يكون حصل اشتباه بسبب الاشتراك في رسم الأسماء، وأن المقصود بملوك غانة المنسوبين إلى العلويين، غانة أخرى غير المملكة التي اشتهرت في غرب بلاد السودان، أو أن ما يقال إنها عاصمة غانة، وهي "كومبي صالح"؛ اشتبهت ببني صالح، المذكور في النسب. والله أعلم. هذا وأورد العلامة سليمان كَنْتِي (تاريخ مَنْدِى 81/1-84) قولا بنسبة أسلاف منسا موسى إلى بلال بن رباح الحبشي الصحابي، وأبطله من عدة جوانب، وصحّح ما كان قدّمه من أن نسب أسلاف بيت كَيْتَا راجع إلى بُرِمَنْدِى، وأنهم ورثوا المُلك من بيت آخر مِن مالى. واستطرد في أن نسبة العائلات المشهورة في بلاد السودان إلى أصول عربية من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وغيرهم من المسلمين المشهورين، أمر شائع، ومثير للشكوك، لا سيما عائلات وبيوت معروفة قبل دخول الإسلام إلى بلاد مالى، بل عائلات يرجع تاريخها إلى حقب ما قبل البعثة.

صفاه وعاداته ومذهبه المالكي

وصفت مصادرنا منسا موسى بأوصاف خَلقية، وأوصاف أخرى تتعلق بأخلاقه وسجاياه وعاداته الاجتماعية، ولنترك لها الحديث بألفاظها:

"شابٌ عاقِلٌ حَسَنُ الشَّكْل، راغِبٌ في العِلْم، مالِكِيٌ"[1]؛

"كانَ.. مُحِبّاً لِلْخَيْر وأَهْلِه، وَتَرَكَ مَمْلَكَته واستَنابَ بِها وَلَدَه مُحَمَّدا، وهَاجَر إلى اللهِ وَرَسُولِه؛ فَأَدَّى فَرِيضَةَ الحَجّ، وزار النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، وعادَ إلى بِلادِه عَلى أنَّه يُقَرِّر لِابْنِه المُلْكَ وَيَتْرُكه لَهُ بِالْكُلِّيّة، وَيَعُود إِلى مَكّةَ المُعَظَّمة، ويُقِيم مُجاوِرا بِها، فَأَتاهُ أَجَلُه، رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى... كانَ مُدَّةَ مُقامِه بِمِصْر، قَبْلَ تَوَجُّهِه إلى الحِجاز الشَّرِيف وَبَعْدَه؛ عَلى نَمَطٍ واحِدٍ فِي العِبادة والتَّوَجُّه إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ، كَأَنَّه بَيْنَ يَدَيْه؛ لِكَثْرة حُضُوره، وَكانَ هُوَ وَمَنْ مَعَه عَلى مِثْلِ هَذا، مَعَ حُسْن الزِّيّ فِي المَلْبَس والسَّكِينة والوَقار، وَكانَ كَرِيما جَوادا كَثِيرَ الصَّدَقة والبِرّ..، [عَلى] سَعَة الحال والمرُوءة والدِّيانة..، تَفَقَّهَ فِي الدِّين..، وكانَ لا يُحَدِّثُني[2] إلاّ بِتُرْجُمان، مَعَ إجادَة مَعْرِفَته لِلتَّكَلُّم بِاللِّسانِ العَرَبِيّ[3].. مِنْ عادته أنَّه لا يَأْكُل بِحُضُور أحَدٍ مِن النّاس كائِناً مَن

---

[1] العبر للذهبي 69/4.

[2] المتكلم أبو أحمد بن الجاكي، المَهْمَنْدار، المكلف بتلقّي الوفود في بلاط السلاطين.

[3] عبارة القلقشندي (صبح الأعشى 283/5): "مع إجادَتِهِ اللِّسانَ العَرَبِيّ". والالتزام بلسان مالى في الحديث الرسمي مرسوم متبع من سلاطينها وأمرائها، حَكَى ابنُ بطوطة مثل هذا في رحلته 233/2، وهو أن فَربا حسين، وهو نائب منسا على "إيولاتن" (ولاته)، كان يكلِّم التُّجار بترجمان، وهم بين يديه، على قربهم منه، وعدَّه ابن بطوطة احتقارا لهم، ويبدو أن هذا العُرف المتبع في بلاد مالى، غير مفهوم من غيرهم مغاربة ومشارقة، فيعُدّونه إهانة وترفُّعا، والعرف باقٍ في بعض مناطق نفوذ مالى إلى اليوم، وهو عندهم عنوان احترام وتنظيم وتحسين للكلام لا ترَفُّع وإهانة؛ إذْ كان ثمة مَن يَمْتَهِن فَنَّ تحسين الكلام؛ فيكون وسيطا حتى بين السلطان أو الزعيم وقومه من أهل لسانه. وتوسُّط المترجمين يجعل للظن مدخلا في بعض الحكايات حتى يُعْرَفوا وتُعرَفَ إجادتهم للسانين وأمانتهم.

كان، بَل يَأكُلُ دائماً وَحْدَه بِمُفْرَدِه[1]..، ومِنْ عَادة أهْل مَمْلَكَتِه أنَّه إذا نَشَأ لِأحَدٍ مِنْهُم بِنْتٌ حَسْناء قَدَّمَها لَه أَمَةً مَوْطُوءة؛ فَيَمْلِكُها بِغَيْر تَزْوِيجٍ، مِثْل ما مَلَكَت اليَمِين، مَع ظُهورِ الإِسْلامِ بَيْنَهم وَتَمَذْهُبِهِم بِمَذْهَب المالِكِيّة.. هَذا مَعَ كَوْن السُّلطان مُوسى مُتَدَيّناً مُحافِظا عَلى الصَّلاةِ والقِراءة والذِّكْر![2].. فَقُلتُ لَه: إنَّ مِثْل هَذا لا يَجُوز وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ شَرْعاً ولا عَقْلا، فَقال: وَلا لِلْمُلُوك؟ فَقُلتُ: وَلا لِلْمُلُوك، وَسَلِ العُلَماء! فَقَال: وَاللهِ ما كُنْتُ أعْلَمُ! وَقَد تَرَكْتُ هَذا مِن الْآن، وَرَجَعْتُ رُجُوعا كُلِّيّاً عَنْه"[3].

"كانَ رَجُلاً صالِحا.. لَهُ فِي العَدْل أخْبارٌ تُؤْثَرُ عَنْه"[4].

"كانَ عَفِيفاً دَيِّناً.. كَثِيرَ المرُوءة جِدّاً"[5].

---

[1] هذا من باب اختلاف العوائد؛ فقد يُعدّ صنيعه هذا في بعض العادات من علامات البخل، ويكون عنوان السخاء وصف الشخص أنه لا يأكل وحده أبدا حتى يبحث عَمَّن يشاركه، ومنسا موسى سلطان اشتهر بالسخاء العميم والعطاء الجمّ. وقارِن هذا بما نقله ابن خلدون عن المعمّر الكُومي الذي التقى بمنسا موسى في غدامس في طريق عودته من الحج وصحبه إلى مالى، وفيه عنه: "قالَ: كُنّا نُوَاكِبُه أنا وأبو إسحاق [الطُّويجن] دون وزرائه ووجوه قومه؛ نَأخُذُ بأطراف الأحاديث، نَتَمَتَّع، وكان مُتْحفاً في كُلِّ مَنْزِلٍ بِطرف المآكل والحلاوات"، هل يدل على أنهم كانوا يأكلون معه أم لا؟ فلينظر مع ما ههنا!

[2] تحكي الروايات الشفهية سلاطين طغاة؛ كانوا يفضُّون البِكر قبل دخولها على زوجها، فليقارن بما هنا. ويُشاهَد في كثير من أنحاء غرب بلاد السودان، عاداتٍ مخالفة للإسلام مخالفة ظاهرة، تبقى مع ظهور الإسلام وتمكنه ومتانته وقدم عهده فيها. لكن الغريب في الحكاية المذكورة أن علماء بلده من السودان والبيضان، لم ينكروا ذلك، بل إن منسا موسى وُصف بأنه فقيه مالكي، ويحتمل أن يكون ذلك من كفار بلاده أو من جيرانه غير المسلمين، وقد ذكر غير واحد إقرار ملوك مالى جيرانهم الكفارَ على دينهم، والأمر لا يخلو من مأخذ شرعي إذا صحّ. والله أعلم.

[3] مسالك الأبصار 107/4، 119-124.

[4] تاريخ ابن خلدون 264/6-270.

[5] الدرر الكامنة لابن حجر 383/4-384.

"كانَ سُلْطاناً صالِحاً تَقِيّاً عابِداً..؛ وَمِنْ عَلامةِ صَلاحِه أنَّه كانَ يَعْتِقُ كُلَّ يَوْمٍ نَفْساً"[1].

مَمالِكه

الذي سار عليه معظم مصادرنا – تبعا لأهل مصر – هو تسمية الممالك التي كان يحكمها منسا موسى، بمملكة التَّكْرُور[2].

أما ابن فضل الله فقد حقَّق أن اسم مملكة منسا موسى هو: مالى، وأنَّ تسميتها بالتكرور لا تطابق الواقع، ولا يوافِق عليها سلطانُها. قال: "مَمْلَكة مالى وما مَعَها... وصاحِبُ هَذِه المَمْلَكة هُو المَعْرُوف عِنْدَ أهْلِ مصْر بِمَلِك التَّكْرور، وَلَوْ سَمِعَ هَذا أَنِفَ مِنْه؛ لِأنَّ التَّكْرُور إنَّما هُو إقْلِيمٌ مِن أقالِيم مَمْلَكَتِه، والأَحَبُّ إِلَيْه أنْ يُقال: صاحِبُ مالى؛ لِأنَّه الإقْلِيم الأَكْبَر، وهوَ بِهِ أشْهَر"[3].

وتبعه القلقشندي والمقريزي، فقال القلقشندي: "بِلاد مالى ومُضافاتُها...

---

[1] تاريخ الفتّاش ص32.

[2] يبدأ ذلك بالنويري، أقدم مصادرنا، إلى آخرها؛ قال النويري في نهاية الأرب 54/33: "وفيها وَصَلَ إلى الدِّيار المَصْرِيَّة، المَلِكُ مُوسَى مُتَمَلِّكُ بِلادِ التَّكْرُور".

[3] مسالك الأبصار 107/4، ومثله في كتاب "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" للدمشقي (ت727)، في الفصل الخامس من الباب التاسع ص267، قال: "وأما السودان فطوائف كثيرة، ونَبْدَأ بمكان مساكنهم الواغلة في الجنوب، ويُطْلَق عليهم التَّكرور، وليس هذا الاسم مما يَعُمّ طوائفَهم، وإنما يُطْلَق على طائفة منهم يَسْكُنُون بلدا يُسَمَّى بهذا الاسم". وذكر السلطان محمد بلو أن أهل بلاده لا يعرفون مصطلح "التكرور"، وإنما يَتَلَقَّوْنَه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين ومصر. انظر: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص47. أما إقليم "التَّكْرُور" الذي اشتهرت باسمه ممالك منسا موسى في مصر والمشرق، فيغلب على الظن أنه يقع اليوم في الحوض الأوسط والجنوبي لنهر السنغال، ففي تلك المناطق في شرق جمهورية السنغال الحالية، منطقة تعرف ببلاد تُكُلور [TUKULOR]. وانظر: معجم روبرت للأعلام عند كلمة [Toucouleur].

وَهِيَ المَعْروفة عِنْدَ العامَّةِ بِبِلادِ التَّكْرُور"[1].

وأما ابن بطوطة، الذي رحل إلى بلاد مالى، ودخل عاصمتها، ولقي بها منسا سليمان وهو سلطانها يومئذ؛ فلم يذكر في رحلته إلا بلاد مالى.

ومثله ابن خلدون؛ فقد التزم بالتسمية المطابقة؛ فلا يسمِّي ممالك منسا موسى إلا "مالى"، ويجعل التكرور وغانة وصوصو وغيرها تابعة لها[2]. لكنه أطلق على منسا موسى "مَلِك التَّكْرُور"، حين أتى إلى ذكر حجته المشهورة[3]، ولعله تأثر بمصادره في حجته، من المؤلّفين المصريين وأهل المشرق.

ومملكة مالى كانت أهمَّ ممالِك منسا موسى، وكانت بها عاصمتها ومقر سلاطينها[4]، ومن الممالك والأقاليم الرئيسة التي كانت تتبعه: غانة والتَّكْرُور وصُوصُو وزافُونُ وتِرِنْكَا وزاغا وبانْبُقُو وكَوْكَوْ وغيرها[5].

---

[1] صبح الأعشى 271/3، وانظر: درر العقود الفريدة للمقريزي 496/3.

[2] قال في كلامه على الجزء الأول من الإقليم الأول من الأقاليم السبعة التي قسّم العالم إليها، 69/1: "مدينة سِلا وتَكْرُور وغانة، وكلُّها لِهذا العَهْد في مَمْلَكة مالى مِن أُمَمِ السُّودان"، ومثله عند القلقشندي في صبح الأعشى 275/5.

[3] تاريخ ابن خلدون 495/5–496.

[4] رسْم اسم عاصمة مالى عند ابن فضل الله: "بيتي" بياءين، وذكَرها بهذا الهجاء أكثر من مرة من كتابه المسالك، واختلفت مصادرنا في ذلك؛ ففي بعضها "نيني"، والفرق في الإعجام مع الاتفاق في الرسم. وفي تاريخ الفتاش ص38، ذكر الفع محمود عاصمتين لبلاد مالى، إحداهما "يَنِعْ"، بفتح الياء وكسر النون، آخر الحروف عين ساكنة، وهو على طريقته في كتابة أعلام بلاد غرب السودان، قريبة جدا مما في درر العقود الفريدة للمقريزي 419/2 (في موضعين من الصفحة) "يني"، ومما ذكره العلامة سليمان كَنْتِي غير مرة في تاريخ مَنْدِى: نَنِ، النون الأولى مشبعة بياء، ولا مقابل لها في الأصوات العربية [GNANI]. ويظهر أن سبب الاضطراب في رسمها وجود صوت لا مقابل له في الأصوات والحروف العربية. والله أعلم.

[5] انظر: مسالك الأبصار 108/4، وصبح الأعشى 275/5. وهذه الأقاليم التي أثبتُّها في الصلب لم تزل معروفة بأسمائها المذكورة أو قريبة منها، وبعضها أسماء فروع قبائل، ولم تعد أقاليم على الأرض، وذكر ابن فضل الله أقاليم أخرى لم أتبيَّنها. فليراجع!

ويُطْلِق الفع محمود كعت على مملكة منسا موسى: "مَلِّ" ويسمِّي سلطانها: "مَلِّكُيْ"[1]، أي صاحب مَلّ، بلسان سُغَيْ.

وكذلك يفعل السعدي، وقد يُلْحِق هو ياءً في الآخر: مَلِّي، ويَفْصِل بين الكلمتين؛ المضاف والمضاف إليه: مَلِّي كُيْ[2]، ولعل الفصل بسبب أن اللصق ينشئ اشتباها بمثل: مَلَكِيّ، نسبة إلى "مَلِك" مثلا، أو أنه جرى على ما هو الحال في الرسم العربي من الفصل بين المضاف والمضاف إليه.

و"مالى" هو "مَنْدِى" في لسان بعض أهلها؛ والفرق في الإبدال الحاصل بين الدال واللام، أمرٌ شائع في ألسنتهم ولهجاتها. قال القلقشندي في ضبطها: "ومالى بفَتْحِ المِيم وأَلْفٍ بَعْدَها لامٌ مُشَدَّدة مُفَخَّمة، وَياء مُثَنّاة تَحْت في الآخِر"[3]. وكون اللام مُفَخَّمة ومُشَدَّدة، يجعلها حرفا بين اللام والدال قريبا إلى الضاد العربية، ثم قد يكون الحرف تطوّر إلى لام مدغمة، أو إلى دال؛ باختلاف اللهجات: (مَلِّى) و(مَنْدِى)؛ على أن كثيرا مِن أهل مناطق نفوذ مالى، يَقْلِبون الضاد العربية لاما مفخمة عند قراءة القرآن الكريم[4].

---

[1] انظر مثلا: تاريخ الفتاش ص32.

[2] تاريخ السودان ص8-9.

[3] صبح الأعشى 271/5.

[4] وللعلامة سليمان كَنْتِي كلام متين حول هذا الاسم، والتطوّر الذي طرأ عليه؛ فقال (تاريخ مَنْدِى ص69-71): إن الاسم السابق لمملكة مَنْدِى هو: وُدُمَا، ثم تَغيَّر الاسم إلى مَنْدِى (مالى)، وهو مركَّبٌ من لقب سلطانها الذي تحوّل إلى مَانْ (بمد حركة الميم قليلا بِشِبْه الهمزة أو العين) أو "مَكَنْ" أو "مَغَنْ"، بحسب اللهجات؛ تبعا للقب سلاطين غانة، وذلك في فترة تبعيتها لنفوذ غانة، ومعنى مَنْدِى [بإمالة كسرة الدال]: وَلَد مَانْ؛ وأُطْلِق في البداية على أفراد بيت السلطان، ثم عمّ جميع سكان الإقليم، ثم أطلق على الإقليم نفسه، وكان ذلك بلسان بني عمومتهم من أهل غانة: مَلّى [بإمالة كسرة اللام]، بالمعنى نفسه، وبذلك سجّله الجغرافيون والمورخون العرب، ومن الكتب العربية ترجم إلى اللغات الأوروبية، والنسبة إلى ذلك: "مَلِّنكى" [بإمالة الكاف] أو "مَندِنكا" و"مَنِنْكَا"، بحسب الألسن واللهجات. انتهى منه بتصرف.

وفي تاريخ السودان نصٌّ للسعدي يؤَكِّد ما هنا؛ ففي سياق نقله عن ابن بطوطة خبرَ منسا موسى، قال: "قالَ أبو عَبْدِ الله مُحمَّد بنُ بَطُوطة فِي رِحْلَتِه – رَحِمَه اللهُ تَعالَى –: كانَ السُّلْطانُ مَنسَى موسى، يَعْنِي مَلِّ كُيْ كَنْكُن موسى"؛ فقد نَقَل السعدي عن كتاب ابن بطوطة تسميته بمنسا موسى، ثم عقب ذلك بتسميته بما هو أشهر به عندهم من تسمية ابن بطوطة، وهو "مَلِّ كيْ كنكن موسى"، ولم يقل: مالى، كما في نسخ رحلة ابن بطوطة التي اطلعت عليها، بل يقول: مَلِّ، على طريقته وطريقة الفع محمود؛ في كتابة أعلام بلاد السودان.

وسكان ممالك منسا موسى، مسلمون في أغلبيتهم، ويسكن فيها كفار لا تؤخذ منهم جزية، بل يُسْتَعمَلون في استخراج الذهب من معادنه، ولهم جيران كثير، بعضهم على غير الإسلام، وبينه وبين بعضهم مهادنات[1].

وكان في عاصمة مالى مغاربة ومصريون، منهم علماء وقضاة، ذكر منهم ابن بطوطة أبا العباس الدكّالي، كان قاضيا بمالى[2]. ودكالة التي انتسب إليها، تقع في بلاد المغرب[3]. قال ابن بطوطة يحكي تفاصيل دخوله عاصمة مالى: "وعادَتُهم أنْ يُمْنَع النّاسُ مِن دُخُولِها إلاّ بِإِذْن، وَكُنْتُ كَتَبْتُ قَبْلَ ذَلِكَ لِجَماعَةِ البِيضان، وَكَبِيرُهم مُحَمّد بْنُ الفَقِيه الجُزُولِي، وشَمْسُ الدِّين بن النقويش المصْرِيّ، لِيَكْتَرُوا لِي داراً... فَوَصَلْتُ إلى مَدِينةِ مالى؛ حَضْرَة مَلِكِ السُّودان، فَنَزَلْتُ عِنْدَ مَقْبَرَتِها، وَوَصَلْتُ إِلى مَحَلّةِ البِيضان، وَقَصَدْتُ مُحَمَّدَ بنَ الفَقِيه، فَوَجَدْتُه قَدِ اكْتَرَى لِي

---

[1] مسالك الأبصار 118/4، 127.

[2] انظر: رحلة ابن بطوطة 245/2.

[3] ضبطه ياقوت في معجم البلدان 459/2 بفتح الدال، قال: "دكالة: بفتح أوله وتشديد ثانيه: بلد بالمغرب يسكنه البربر"، وبفتح الدال ضبطه ابن العماد الحنبلي مرتين في شذرات الذهب؛ فقال في إحدى وفيات سنة 695: "الدكالي بفتح الدال المهملة وتشديد الكاف، نسبة إلى دكالة بلد بالمغرب"، ومثله في إحدى وفيات سنة 819، وذكر الضم في تاج العروس مع القاموس، ونقل الفتح أيضا، قال: "دُكّالة كرُمّانة، وضبطه الصّاغاني بفتح الدال: بَلَدٌ بالمغرب للبربر"، وذكر ابن خلدون في تاريخه 264/6 دكالة من قبائل البربر، وأنهم يسكنون غرب مراكش إلى جانب البحر.

داراً.. وجاء صِهْرُه الفَقِيهُ المُقْرِئُ عَبْدُ الواحِد.. وَعَلِيٌّ الزودي المُراكُشِي.." إلى أن قال: "وَطَلَبْتُ مِن بَعْضِ المصْرِيِّين دَواءً مُسهلاً.."[1].

ونقل ابنُ فضل الله أخبار بلاد مالى كثيرا، عن دكّالي آخر، قال عنه مرة وهو ينقل عنه أخبارها: "حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الثِّقَةُ الثَّبْتُ، أبُو عُثْمانَ سَعِيد الدكّالي، وَهُوَ مِمَّن سَكَنَ مَدِينة بيتي[2] خَمْساً وَثَلاثِين سَنَة"[3].

تَوَلِّيه الحكم

انفرد ابن فضل الله العُمَري بنقل طريقة تَوَلِّي منسا موسى الحكمَ، في حديث مباشر بينه وبين ابن أمير حاجب، وهو – مع انفراده — يغلب على الظن صحته؛ لاتصال النقل وقُوَّته، ولننقله بلفظه:

---

[1] رحلة ابن بطوطة 237/2. أما الجُزولي فنسبة إلى "جُزولة" أو "كزولة"، قبيلة مشهورة من البربر. انظر: معجم البلدان 462/4، وتاج العروس مع القاموس. وأما الزودي فذكر الإدريسي في نزهة المشتاق 71/1 من قبائل البربر الساكنين حول مراكش: قبيلة "زودة". فالزودي المراكشي نسبة إليها.

[2] المقصود عاصمة مالى: يَنِي [GNANI]، وقد سبق – قبل قليل في الحاشية – بيان اضطراب مصادرنا في رسمها وهجائها.

[3] مسالك الأبصار 109/4. لم يقع لنا من مصادرنا تحديد بداية ونهاية الثلاثين سنةً التي قضاها سعيد الدكالي في عاصمة مالى، ولكن يغلب على ظننا أنه قضى فيها كل أو أغلب عهد منسا موسى، وابن فضل الله العمري بروايته المباشرة عن الدكالي، يجعل الأمر قريبا من عهده؛ لأن ابن فضل الله توفي سبع عشرة سنة فقط بعد وفاة منسا موسى، ثم إذا فرضنا أن ابن فضل الله كتب أخبار بلاد مالى من المسالك حوالي سنة 737 [كما يدل عليه حكايته عن استمرار سعر الذهب في الهبوط، وقوله: ملكها الآن منسا سليمان، وحكمه من حوالي 737]، وفرضنا أيضا أنه نَقَل عن الدكالي في السنة نفسها، وفرضنا ثالثا أن الدكالي خرج من مالى في السنة نفسها؛ فإنه يكون دخوله مالى من حوالي 702 إلى حوالي 737، وحكم منسا موسى من 708 إلى حوالي 733، فيكون الدكالي قد أقام في بلاد مالى كلّ عهد منسا موسى. وإن كانت إقامة الدكالي في مالى قبل ذلك، سحبت التواريخ إلى الخلف. وعلى أغلب الاحتمالات يصعب أن يخرج من إقامته جُلّ عهد منسا موسى، خاصة أن نهاية عهد منسا موسى، بداية تناقص قوة مالى، وفتور العطاء الذي كان يُغْدَق على البيضان وغيرهم، فلا يبعد أن يكون ذلك سبب خروج كثير منهم. والله أعلم.

"قال ابنُ أميرِ حاجِب: سَألتُ السُّلطانَ موسى: كَيْفَ انتَقَلتْ إلَيه المَمْلَكة؟ فقال: نَحْنُ أهْلُ بَيْتٍ نَتَوَارَثُ المُلْك، وَكانَ الَّذِي قَبْلِي لَا يُصَدِّقُ أنَّ البَحْرَ المُحِيطَ لا يُمْكِنُ الوُقُوفُ عَلى آخِره، وأَحَبَّ الوُقُوفَ عَلى هَذا، وَوَلِعَ بِه، فَجَهَّزَ مِئين مَراكِب مَمْلُوءة مِن الرِّجال، وأمْثالَها مَمْلُوءة مِن الذَّهَب والماءِ والزّاد ما يَكْفِيهم سِنِين، وقالَ للمُسَفَّرين فِيها: لا تَرْجِعُوا حَتَّى تَبْلُغُوا نِهايَتَه أو تَنْفَذ أزْوَادُكم وماؤُكُم. فَساروُا وَطالَتْ مُدَّةُ غَيْبَتِهم لَا يَرْجِعُ مِنْهُم أَحَد، حَتّى مَضَتْ مُدَّةٌ طَوِيلة، ثُمَّ عادَ مَرْكَبٌ واحِدٌ مِنْها، فَسَألْنا كَبِيرَهُم عَمّا كانَ مِن أثَرِهِم وَخَبَرِهِم، فَقال: تَعلم أيُّها السُّلْطان أنّا سِرْنا زَماناً طَوِيلا حَتّى عَرَض فِي لُجَّة البَحْر وادٍ لَهُ جِرْيةٌ قَوِيّة[1]، وَكُنْتُ آخِرَ تِلْكَ المَراكِب، فأمّا المَراكِبُ فَإنَّها تَقَدَّمَتْ فَلمّا صارَتْ فِي ذَلِك المَكانِ ما عادَتْ ولا بانَتْ، ولا عَرَفْنا ما جَرَى لَها، وأمّا أنا فَرَجَعْتُ مِن مَكانِي وَلَمْ أدْخُل ذَلِك الوادِي. قال: فَأنْكَر عَلَيْه. قال: ثُمّ إنّ ذَلِك السُّلْطان أعَدَّ أَلْفَيْ مَرْكَب: أَلْفاً لَهُ وَلِلرِّجال اسْتَصْحَبَهُم مَعَه، وَأَلْفاً لِلزّاد والماء، ثُمّ اسْتَخْلَفَنِي وَرَكِبَ بِمَنْ مَعَه فِي البَحْر المُحِيط وَسافَرَ فِيه، وَكانَ آخِرَ العَهْدِ بِهِ وَبِجَمِيع مَنْ مَعَه، وَانْتَقَلَ إلَيَّ المُلْك"[2].

وتعني هذه الحكاية أن منسا موسى انبسطت علاقته مع ابن أمير حاجب وزالت بينهما الحواجب والرُّسوم. ويدل أيضا على أن انتقال السلطة من حاكم إلى آخر، كان من الهواجس الخطيرة المثيرة للأسئلة، وأنه فترة كانت تحتمل الصراع على السلطة.

فتوحاته وأعماله

فتح منسا موسى عِدّةً مِن ممالك بلاد السودان المجاورين له[3]، فدخل فيها

---

[1] الجِرْية: حالة الجَرْي (تاج العروس)، فالمعنى: أن للمياه في الوادي تيّارا وسرعةً كبيرةً.

[2] مسالك الأبصار 120/4، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 283/5.

[3] خمس وعشرون مملكة عند أبي حيان، وأربع وعشرون عند ابن فضل الله، وأربع عشرة عند ابن الوردي.

الإسلام، وبنى في طول وعرض البلاد الأصيلة والمفتوحة، مساجدَ وجوامعَ كثيرة؛ فعظمت ممالكه، وبلغت غاية لم تبلغها قبله ولا بعده، وجلب إلى بلاده فقهاء مذهب الإمام مالك رحمه الله، وبعث للتعلم إلى فاس جماعةً مِن ممالكه، وضمّ إلى ممالكه بلاد سُغَيْ، وبنى في تنبكت وغاو مسجدَيْن جامِعَين، وبنى بتنبكت دارا للإمارة سمّاها: "مَعَ دُكُ"، أي دار السلطان[1].

ووَصَف منسا موسى لابن أمير حاجب جماعةً مِن أعدائه فقال: "وشَدِيدُهُم فِي السُّودانِ كَالتَّتار لَكُم، وَبَيْنَهُم وَبَيْنَ التَّتار مُناسَبَةٌ مِنْ جِهاتٍ، مِنْها أَنَّهُم وِساعُ الوُجوه، فُطُس الأُنُوف، وَلَنا وَلَهم وَقائِع، وَلَهُم بَأسٌ شَدِيدٌ وإصابةٌ، رَمْيُهُم بِالنُّشّاب، وبَيْنَنا وَبَيْنَهُم نُوَبٌ، والحُرُوب ثارات"[2].

ولم يظهر مَنْ كان يَقْصد منسا موسى مِن جيران مالى في غرب بلاد السودان، الذين وصفهم بشكل الوجه وشدة البأس في الحرب، لكنَّ ابن سعيد المغربي وصاحب حماه؛ ذَكَرا مِن أمم السودان مَن شبَّهاهم بالتتار، قال ابن سعيد: "مِن مُدن السودان: دمدمة، التي خرج منها الدمدام على بلاد النوبة والحبشة سنة سبع عشرة وستمائة [617] في طالع خُروج التَّتَر على بلاد العجم، وهم تَتَرُ السودان"[3]. وقال صاحب حماه في تفصيل أصناف السودان: "ومِنْ

---

[1] انظر: البحر المحيط 96/8، ومسالك الأبصار 107/4، 118، وتاريخ ابن الوردي 266/2، وتاريخ السودان ص7–8، وتاريخ السودان ص7، 56، ومنه معنى "مَعَ دُكُ"، وذكر فيه بأنه بلسان مالى. قلت: معَ دُكُ [MAA DUKU] معناه أرض "مَعَ" أي الأمير أو السلطان.

[2] مسالك الأبصار 119/4، وهذا بيان لبعض ما ورد في النص من غريب: الفَطَسُ: انخفاض قصبة الأنف وانتشارها، ويوصف صاحب الأنف بأنه: أَفْطَس، والجمع: فُطُس. (المعجم الوسيط). النُّشّاب: النبل، واحدته نشابة. (تاج العروس مع القاموس والمعجم الوسيط). نُوَب: أي نَوبة بعد نوبة، فمرة لنا ومرة لهم. كذا يؤخذ من مواضع الاستخدام في صبح الأعشى.

[3] الجغرافيا لابن سعيد ص3، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 321/5، بعبارة قريبة، ثم نقل عن ابن فضل الله العمري – في كتابه "المسالك" – الموضع المنقول أعلى الصفحة؛ عن منسا موسى، يتحدث عن أعدائه الذين شبَّههم بالتتار؛ إشارة منه على احتمال أن يكون منسا موسى يقصدهم.

أُمَمِهِم الدمادم، وبِلادُهم عَلى النِّيل، فَوْقَ بِلادِ الزِّنْج، والدمادم تَتَرُ السُّودان؛ فإِنَّهُم خَرَجُوا عَلَيْهِم، وَقَتَلُوا فِيهِم كَما جَرى لِلتَّتَر مَعَ المُسلِمِين، وَهُمْ مُهْمِلُونَ فِي أَدْيانِهِم، وَلَهُم أَوْثانٌ وَأَوْضاعٌ مُخْتَلِفة، وَفِي بِلادِهِم الزَّرافات"[1].

فيحتمل مما سبق أن منسا موسى يقصد الدمادم، لكن يشكل على ذلك أن الدمادم مذكورون في أقصى شرق بلاد السودان على المحيط الهندي، ناحية الحبشة، لا في غربها حيث بلاد مالي؛ يدل على ذلك ترتيب ذكرهم عند ابن سعيد المغربي وصاحب حماه على ما سبق آنفا، وكذلك عند ابن خلدون[2]؛ فقد رتَّبوا ذكر أمم السودان من الشرق إلى الغرب؛ بل نصَّ ابن سعيد المغربي أن خروج الدمادم كان على النوبة والحبشة. وذكر صاحب حماه الدمادم وبلادَهم على النيل؛ بعد أن ذكر الحبش والزيلع والنوبة والبجا، وقبل ذِكر الزنج؛ وكلهم في شرق النيل، ثم انتقل إلى غرب النيل فبدأ بالتكرور. أما ابن خلدون فبدأ بالزنج وأنهم في المشرق على بحر الهند، قال ويليهم بربرا، ثم قال: ومِن غَرْبِيّهم وحولهم الدمادم، قال: "وَهُمْ حُفَاةٌ عُراةٌ.. وَخَرَجُوا إلى بِلادِ الحَبَشة، وَهُمْ أَعْظَم أُمَمِ السُّودان، وَهُمْ مُجاوِرُون لِلْيَمَن، عَلى شاطِئِ البَحْر الغَرْبِيّ". فأمة الدمام على هذه الأوصاف في شرق القارة الإفريقية، على المحيط الهندي، وكان خروجهم على سودان المشرق من الحبش والنوبة. فَلَئِنْ لم يَسْتَحِلْ أن يكونوا قطعوا آلاف الكيلومترات لغزو مالي في غرب القارة على المحيط الأطلنسي، فإن ذلك بعيد جدا على ما ظهر لنا في أمور ذلك العصر.

فتبقى الاحتمالات والفرضيات مفتوحة فيمن كان يقصدهم منسا موسى في حديثه لابن أمير حاجب، على ما حكاه ابن فضل الله العمري. والله أعلم.

جلالته وسعة ملكه

وصف علاّمة التاريخ ابنُ خلدون منسا موسى فقال: "وكان مِلِكُ مالي

---

[1] المختصر في أخبار البشر، الفصل الخامس: ذكر الأمم، أمم السودان 95/1.

[2] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-265.

أَعْظَمَ مُلُوكِ السُّودانِ لِعَهْدِه"[1]. ووصف القلقشندي بلاد منسا موسى بأنها "أَعْظَمُ مَمالِكِ السُّودانِ المُسْلِمِينَ مَمْلَكَة"[2]. وهما وصفان يلخّصان سعة ممالكه وقوة سلطانه في عصره، وهيمنته على جيرانه من السودان والبيضان، وشهرته التي سارت بها الركبان، وطبقت الآفاق في المشرق والمغرب.

ولنَدَعْ مصادرَنا تنقل لنا صورةً من ذلك:

"سُلْطانُ هَذِه المَمْلَكة يَجْلِسُ في قَصْره على مِصْطَبَّةٍ[3] كَبيرةٍ تُسَمَّى عِنْدهم: بَنْبِي[4]، بالباء الموحدة والنون والباء الموحدة، على دِكَّةٍ[5] كَبِيرةٍ مِن آبنوس[6] كالتَّخْت[7] يَكُون قَدْر المَجْلِس العَظِيم المُتَّسِع، عَلَيْها أنْيابُ الفِيَلة في جَميع جَوانِبها؛ النّاب إلى النّاب... ومَلِكُ هذه المملكة إذا قَدِم مِن سَفَرٍ يَحْمِلُ على رأسِه الجَتْرَ[8] راكبٌ، ويُنْشَرُ على رَأسِه عَلَم، ويُضْرَب قُدّامَه الطُّبُولُ والطَنابِيرُ[9]

---

[1] تاريخ ابن خلدون 352/7.

[2] صبح الأعشى 18/8، وكرره مثله مرتين قبله: 272/5، 8/8.

[3] المِصْطَبَّةُ بناء مُسطَّح غير مرتفع كثيرا، يجتمع الناس للجلوس عليه. (تاج العروس مع القاموس، والمعجم الوسيط).

[4] وذكرها ابن بطوطة في رحلته، في وصف مجلس منسا سليمان 238/2، قال: "ويجلس أيضا في بعض الأيام.. وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (بفتح الباء الأولى المعقودة وكسر الثانية بسكون النون بينهما)، وتفرش بالحرير، وتجعل المخادع عليها.. وعليها طائر من ذهب على قدر البازي". ويحتمل، على ما ضبطه ابن فضل الله وابن بطوطة؛ بكسر صريح أو ممال: [BANBE] أو [BANBI].

[5] الدكة: مثل المصطبة، بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه. (تاج العروس والمعجم الوسيط).

[6] الآبنوس شجرٌ خشبه أسود وقوي، من أجود الأنواع، وهي بالفرنسية: (Bois d'ébène).

[7] التخت مكان مرتفع للجلوس أو للنوم، أوعاء يصان فيه الثياب. تاج العروس والمعجم الوسيط.

[8] الجتر كلمة فارسية تعني المِظَلَّةُ، أي ما يُظلّل به العظماء عند ركوبهم (تاج العروس).

[9] يؤخذ من معاني الكلمة أن المقصود بها الآلة ذات الأوتار، مثل العود. وهي مشهورة في كل مناطق نفوذ مالي، وهو ما يسمى اليوم [GONI] في إحدى لهجات بلاد مالي، وهي صندوق من خشب ←

والبُوقات بِقُرونٍ لَهُم فِيها صَنَاعَةٌ مُحْكَمَة... وشِعارُ هَذا السُّلطان أَصْفَرُ في أَرْضٍ حَمْراء[1]، وَتُنْشَرُ عَلَيهِ الأعْلامُ حَيْثُ يَرْكَب، وهِيَ أَلْوِيَةٌ كَبِيرةٌ جِدّا. وخِدْمَةُ القادِمِ عَلَيْهِ أو المُنعَم عَلَيْهِ، أنْ يَكْشِفَ مُقَدَّمَ رَأْسِهِ، وَيَضْرِبُ بِيَدِه اليُمْنَى جَوَكاً إِلَى الأرْض[2]، نَحْو ما يَعْمَلُ التَّتار، فَإذا احتاجَ إلى أَكْثَرَ مِن هَذِه الخِدمة تَمَرَّغَ بَيْنَ يَدَيْه، قال ابنُ أميرِ حاجِب: وأنا رَأَيْتُ هَذا بِالمُشاهَدة والعيان"[3].

"كانَتْ تَحِيّةُ مَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ أنْ يَضَعَ عَمامَتَه وَيَكْشِفُ رَأسَه، وَهُناكَ رَمادٌ مَفْرُوشٌ؛ فَيَأْخُذُ مِن ذَلِكَ الرَّمادِ، وَيَرُشُّهُ على رَأْسِه"[4].

طوله نحو ذراع، فَتْحَتُه مغطاة بجلد، يخرج منه عود، والأوتار مربوطة برأس العود، وبقاعدة الصندوق الخشبي، يضرب على أوتارها شعراء ومغنو بلاد مالى عند إنشادهم. وقارن بوصف الكلمة في: لسان العرب والمعجم الوسيط.

[1] معنى قوله: "شعار هذا السلطان أصفر في أرض حمراء": أي لون دولته أصفر على خلفية حمراء، ويكون المقصود بالشعار لون السلطنة والملك في الأعلام والبذلات ونحوها، وذكر القلقشندي في صبح الأعشى 289/3 فما بعدها؛ أن من شعار الخلافة: اللون في الأعلام والخلع ونحوها، ثم ذكر لون دول مختلفة: الخضرة لبني أمية والسواد لبني العباس، وقال فيه أيضا 33/5: وأما شعار السلطنة فقد ذكر عن الحكيم بن البرهان أيضا أن شعار سلطان اليمن وردة حمراء في أرض بيضاء.

[2] ضرب الجَوَك تحية ملوك الترك والمغول. شَبَّه بها ابن فضل الله تحيةَ أهل مالى سلطانَهم، وفصَّل القلقشندي كيفيته عند أهل مالى في النص المنقول عنه بعد، وفي كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري 232/27 ذكر كيفية ضرب الجَوَك عند قوم جنكيزخان من المغول، قال: "وكيفيته أن يَبْرُك الرَّجُلُ مِنْهم عَلى أَحَد رُكْبَتَيْه وَيَسِير بِمِرْفَقِه إلى الأرض؛ وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم". وضرب الجَوَك مذكور في تحية بعض سلاطين دولة المماليك. انظر ضرب الجوك في: تاريخ الإسلام للذهبي 59/48، وأحكام أهل الذمة لابن القيم 419/1، وأعيان العصر للصفدي 569/1، 697، 68/4، 69، والسلوك، حوادث شهر صفر من سنة 671، والوافي بالوفيات 194/9، 111/10.

[3] مسالك الأبصار 114/4-119.

[4] أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي 477/5. وتحية السلطان بِذَرّ التراب أو الرماد، مذكور في تحية أهل غانة سلطانَهم، قال البكري في المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (من كتابه المسالك والممالك) ص176 في ذكر غانة: "فَإذا دَنا أَهْلُ دِينِهِ مِنْهُ جَثَوْا على رُكَبِهِم، وَنَثَرُوا التُّرابَ عَلى رُؤُوسِهم، فَتِلْكَ تَحِيَّتُهم لَه. وأمّا ←

"وكانَ مَلِكاً عَظِيما لَهُ فِي العَدْلِ أخبارٌ تُؤْثَرُ عُنْه"[1].

"ولا يَدْخُل أَحَدٌ دارَ السُّلْطان مُنْتَعِلاً، كائِناً مَن كان، ومَنْ لَمْ يَخْلَع نَعْلَيْهِ؛ قُتِلَ بِلا عَفْو، عامِداً كانَ أو ساهِيا[2]. وإذا قَدِمَ عَلَيْه أحَدٌ مِن أُمَرائِه أو غَيْرِهم وَقَفَ أمامَهُ زَمانا، ثُمّ يُومِئُ القادِمُ بِيَدِهِ اليُمْنَى، مِثل مَنْ يَضْرِبُ الجَوَكَ بِبِلادِ تُوران وإيران مِن بِلاد المَشْرِق[3]. وَصِفَةُ ذَلكَ أنْ يَكْشِف مُقَدَّمَ رَأسِهِ، وَيَرْفَع الّذي يَضْرِبُ الجَوَكَ يَدَهُ اليُمنَى إلى قَرِيبِ أُذُنِه، ثُمّ يَضَعُها وَهِيَ قائمةٌ مُنْتَصِبة، وَيُلْقِيها بِيَدِه اليُسْرَى فَوْقَ فَخِذِه، وَاليَدُ اليُسْرى مَبْسُوطةُ الكَفّ؛ لِتَلْقَى مِرْفَقَ اليُمْنَى مَبْسُوطةَ الكَفِّ مَضْمُومةَ الأصابِع بَعْضها إلى جانِب بَعْض كالمشْط تماسّ شَحْمَة الأُذُن... فإذا أنْعَم على أحَدٍ بإنْعام، أو وَعَده وَعداً جَميلا، أو شَكَره على فِعل؛ تَمَرَّغَ المُنْعَم عَلَيْه بَيْنَ يَدَيْه مِن أوَّل المَكان إلى آخِره، فَإذا وَصَل إلى آخِرِ المَكان أَخَذ غِلْمانُ المُنْعَم عَلَيه، أوْ مَنْ هُوَ مِن أصْحابِه، مِن رَمادٍ يَكُون مَوضُوعاً في آخِرِ مَجْلِسِ المَلِك، مُعَدّاً لِهَذا الشَّأن، فَيذرُّ فِي رَأس المُنْعَم عَلَيه، ثُمّ يَعُود وَيَتَمَرَّغُ إلى أنْ يَصِلَ بَيْنَ يَدَي المَلِك، وَيَضْرِب جَوَكا آخَرَ بِيَدِه، ثُمّ يَقُوم"[4].

"وكان إذا حَدَّثَه أصحابُه في أَمْرٍ، كَشَفُوا رُؤُوسَهُم عِندَ مُخاطَبَته؛ عادة لَهُم"[5].

المُسْلِمون فَإنّما سَلامُهم عَلَيْه تَصْفِيقٌ بِالْيَدَيْن". وهو مذكور كذلك في تحية أهل سُغَيْ سلطانهم، فمن ذلك ما ورد في تاريخ الفتاش ص98، في قصة أحد عمال أسكيا داود، لما استحضره إلى العاصمة، قال: "فأذِنَ لَهُ فِي الدخول.. فَدَخَلَ وَحَمَلَ التُّرابَ على رَأسِه، على عادتهم المألوفة".

[1] تاريخ ابن خلدون 6/264-265.

[2] هذا إجراء صارم في أمر قد يبدو هَيّناً؛ لكنه يدل عندهم على إهانة متناهية، وبقي أثر ذلك إلى الآن.

[3] قال في تاج العروس مع القاموس: تُوران، بالضم: اسم لجميع ما وراء النهر، ويقال لملكها: توران شاه، كما يقال لمقابله من ديار العجم: إيران، بالكسر، ولملكها: إيران شاه. وانظر: معجم البلدان.

[4] صبح الأعشى 5/288-289.

[5] الذهب المسبوك ص143، ومثله في الدرر الكامنة 4/383-384.

علاقاته الدوليّة

عاصر منسا موسى أعظمَ سلاطين المماليك الأتراك في مصر، وهو محمد بن قلاوون الصالحي، الملقب بالملك الناصر، تَسلطن وسِنُّهُ تسع سنين سنة 693، واستمر سلطانا ثماني وأربعين سنة إلى سنة 741، تَخَلَّلَتْها فترات انقطاع[1]، وكان في الأربعين من عمره لما التقى بمنسا موسى.

ويظن أن منسا موسى عاصر قليلا السلطان المريني أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب، وهو مِن أعظمَ سلاطين بلاد المغرب، تولى السلطنة من عامَ 731 إلى عام 752[2].

علاقته بسلطان مصر

كان بين منسا موسى والسلطان المملوكي محمد بن قلاوون الملقب بالملك الناصر، مكاتبات وهدايا، حتى بعد عودته من الحج. أرسل إليه منسا موسى مرةً كتابا على يد أحد المقرَّبين إليه جاء للحج، وأوصى به، وَصَف منسا موسى نفسه في كتابه برئاسة عظيمة وقوة كبيرة، مع رعاية أساسيات الأدب، وشفع الكتاب بهديةٍ حافلة من الذهب مقدارها خمسة آلاف مثقال[3].

ووصف ابن فضل الله العمري الكتاب فقال: "وَهوَ بِالخَطِّ المَغْرِبِيّ، فِي وَرَقٍ

---

[1] ترجمته في الدرر الكامنة.

[2] ترجمته في الدرر الكامنة، والمَرِينيون أسرة مِن البربر، قامت لهم دولة في المغرب بعد سقوط دولة المُوَحِّدين، وقبل قيام دولة السَّعديين. وقد قوِيت شوكتهم مع بداية القرن السابع الهجري، وكانت عاصمتهم في فاس. ينظر أخبارهم في الاستقصا للناصري 3/3 فما بعد. وانظر منه أخبار السلطان أبي الحسن 3/118-181.

[3] انظر: مسالك الأبصار 125/4، وصبح الأعشى 267/3، 312.

عَريض، السَّطْرُ إلى جانِبِ السَّطْر"[1]. والظاهر أن الأوصاف الثلاثة التي ذكرها هنا كلها مخالفة لما كان عليه العمل في ديوان الإنشاء في مصر: القلم المغربي، والورق العريض، والأسطر المتقاربة. وذكر القلقشندي مثل تلك الأوصاف في كتابٍ عن صاحب البرنو إلى السلطان برقوق الملقب بالملك الظاهر، وصل سنة 794، قال: "في وَرَقٍ مُرَبّع، السَّطرُ إلى جانِبِ السَّطْر، بِخَطٍ مَغْرِبيًّ، ولَيْسَ له هامِشٌ في أعلاه ولا جانِبه، وتَتِمَّةُ الكِتابِ في ظَهْرِهِ مِن ذَيْلِ الكِتاب"[2].

وكان لسلطان مالى ألقاب في إنشاء المكاتبات من ديوان المماليك، تدل على أهمية العلاقة، وقوة التقدير: شَرَفُ مُلوك الأنام.. ذُخْر الإسلام والمسلمين، رُكْن الأمة، زَعِيم المُوَحّدين، سَيْف الخلافة، ظَهِير الإمامة، عِزّ الإسلام، عَوْن جُيوش الموحدين، ناصِر الغزاة والمجاهدين.

وبعض تلك الألقاب يشاركه فيها غيره من السلاطين، مثل صاحب تونس، ويشاركه في بعضها نائب السلطان في دولة المماليك[3].

بل بقيت الإشارة إلى منسا موسى في الكتابة إلى سلطان مالى؛ فمن عبارات مراسم الكتابة إليه أن يُتَمَنَّى للسلطان القائم أن "يُنْسِي مُوسى مَنْسَى"[4] بأعماله وإنجازاته.

علاقته بسلطان المغرب

قد يكون منسا موسى أسس علاقة ومواصلة بينه وبين السلطان أبي الحسن المَريني، استمرت وتعاظمت بمهاداة وسفارات بين خلفه وسلاطين بني

---

[1] مسالك الأبصار 125/4.

[2] صبح الأعشى 119/8، وانظر منه: 20/8 فما بعدها؛ في ذكر عادة ديوان الإنشاء في مصر فيما يتعلق بالمسافة بين الأسطر، وموضع الكتابة على الورق.

[3] انظر: صبح الأعشى 49/6.

[4] التعريف بالمصطلح الشريف ص27.

مَرين[1]؛ ومن ذلك أن ابنه وخلفه منسا مَغا أوفَد أعياناً مِن مالى لتهنئة أبي الحسن في سيطرته على تلمسان سنة 737، وأجَهَد سلطان المغرب نفسه في رَدّ الهدية بهدية تخيَّرها من أنفس متاع بلاده، بعث لإيصالها أهل ثقته من أعيان رعيته، منهم كاتب ديوانه ومولاه، وأمَرَ أعراب المَعْقِل[2] في طريق الوفد بالانضمام إليهم، لكنهم وصلوا مالى بعد وفاة منسا مغا، وتولي عمه منسا سليمان.

ثم بعد مدة، أغرب منسا سليمان بهدية قيمة أرفق معها زرافة، وأرسل بها وفدا من أعيان بلاد مالى، فلما وصل الوفد مدينة "وَلاتَه"[3] في الحدود الشمالية، توفي منسا سليمان، وحصل اضطراب في مالى، حتى استقر الأمر لمنسا ماري جاطة[4]، فأمر بإيصال الهدية، فوصل بها الوفد مدينة فاس عاصمة المرينيين، في صفر سنة 762، في يوم مشهود. وكان مع وفد مالى إلى بلاد المغرب ترجمانٌ من بربر صنهاجة، ينقل ما يقوله الوفد بلسان مالى إلى السلطان المريني وقومه[5].

---

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6–265، والاستقصا للناصري 151/3، 99/5.

[2] قال ابن خلدون في تاريخه 77/6: عن المعقل: هذا القَبِيل لِهذا العَهْد مِن أَوْفَر قبائل العَرَب، ومَواطِنُهم بقِفار المَغْرب الأقصى.. ويَنْتَهُون إلى البحر المحيط من جانِب الغَرْب.. والصَّحِيح – والله أعلم – مِنْ أَمْرِهم أنَّهم مِن عَرَب اليَمَن".

[3] بلدة تاريخية تقع اليوم في جنوب شرق جمهورية موريتانيا قريبا من حدودها مع جمهورية مالي، ذكرها ابن بطوطة ست مرات في رحلته إلى مالى، (273/2 فما بعد)؛ باسم "ايوالاتن"، ووردت عند ابن خلدون في تاريخه باسم "والاتن" وقال إنها "الثغر الآخِر من أعمال مالى". تاريخه 73/7.

[4] وهذا "ماري جاطة" آخر، جاء اسمه مثل اسم منسا سنجت (ماري جاطة الأول)، قال ابن خلدون 266/6: "وجاطة: الأسد". اهـ. وجاطة عَلَمٌ استخدم في رسمه حرف الطاء العربي. وهو حرف في لسان أهل بلاد مالى تنطقه بعض لهجاتها بشبه الدال العربية، وبعضها بحرف مثل التاء، وبعضها بحرف شبه الراء، وهو اسم الأسد في كل تلك اللهجات [JADA, JATA, JARA]، وهذا مطرد في مثل ذلك الحرف في ألسنة مناطق نفوذ مالى ولهجاتها.

[5] انظر: تاريخ ابن خلدون 411/7، وأرسل ملك كانم بزرافة إلى سلطان تونس من الحفصيين، قال ابن خلدون في 417/6: "في سَنةِ 655 وَصَلَتْ هَدِيَّة مَلِك كانِم، مِن مُلُوك السُّودان، وَهو صَاحِب ←

وذكر ابن خلدون هديةَ أبي الحسن، ووصفها بأوصاف جليلة غير محددة، ومن أوصافها عنده: "ذَخِيرة دارِ الملك وأسناها.. مِنْ تُحَفِ مَتاعِ المَغْرِب وماعُونِه"؛ وأنه كلّف لإيصالها رجالات الدولة منهم كاتب الديوان ومولى السلطان، وسبق أن وصفها كذلك ووعد بذكرها، فقال: "واسْتَجادَ صاحِبُ المَغْرِب مِن مَتاعِ وَطَنِهِ وتَحْتَ مَمالِكِه مِمّا تَحَدَّثَ عَنْهُ النّاسُ، عَلى ما نَذْكُرُه عِنْدَ مَوْضِعِه"[1].

ولم أجد في المصادر ذكر الهدية بأوصاف معينة، لكن يمكن تقريب الهدية التي بعث بها السلطان أبو الحسن المريني إلى سلطان مالى، بما ذُكِر في هدية أخرى بعثها السلطان نفسه إلى سلطان مصر، في زمن قريب من زمن هديته إلى مالى، ووصفها الصَّفَدي فقال: "وكان هَذا السُّلطان أبو الحَسَن، قد صادَقَ.. المَلِك النّاصِر محمد بن.. قلاوون، وهاداه وراسَله، وجَهَّزَ إلَيْه التُّحَف والطُّرَف، وجَهَّز إلَيْه مَرةً في سنة ثَمان وثلاثين وسبعمائة [738] خَمْسين فرساً بِسُرُوجِها وعُدَدِها المَغْرِبيّة، صُحْبَةَ الجِهة التي حَضَرتْ لِلحجاز.. قيل: إنها أحْضَرَتْ مَعَها صُورةَ كَرْمةٍ تُحْمَل على رُؤوسِ النِّساء، عَناقِيدُها الجَواهِرُ النَّفِيسة، وأَحْضَرَتْ مِن الثِّياب البِيض الرِّفاع، جُملةً وافرة، وكانَت هَذِه السُّروج على كُلِّ رِكابٍ مِنْها طِلاءُ ذَهَب.."[2].

وأوفد منسا سليمان أيضا إلى أبي الحسن المريني "الحاجَ موسى الونجراتي"[3]،

بُرْنُو.. وَكان فِيها الزَّرافة، وَهوَ الحَيوان الغَرِيب الخَلْق.. فَكان لَها بِتُونس مَشْهَد عَظِيم".

[1] تاريخ ابن خلدون 264/6-265.

[2] أعيان العصر وأعوان النصر 388/3، في ترجمة السلطان أبي الحسن المريني (عثمان بن علي).

[3] نسبة إلى "ونجراته"، ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى مالى 235/2، وصوله قرية "زَاغَرِي" التي تبعد مسيرة عشرة أيام من ولاته، قال: "وهِي قَرية كبيرة يَسْكُنها تُجّار السُّودان، ويُسَمَّوْن وَنْجَرَاته". وفي تاريخ الفتاش في سياق حديثه عن "مَلِّ" (مالى) ص38: "فإن قيل لَها الفرق بين مَلِنكى ووَنْكَر؟ فاعلَمْ أنَّ وَنْكَرَ ومَلِّنْكِى مِن أصلٍ واحِد، إلاَّ أنَّ مَلِنْكِى هُو الجُنْدِي، ووَنْكَرَ مَنْ يَتَّجِرُ وَيَسْعَى مِن أفُقٍ إلى ←

و"كانَ إذا دَخَل المَجْلِس حَمَل بَعْضُ ناسِهِ مَعَه قُفَّةً مِن تُراب، فَيُترب مَهْمَا قال لَهُ [السلطان أبو الحسن] كلاماً حَسَنا، كَما يفْعَلُ بِبِلادِه"[1].

مدة حكمه ووفاته

بقي منسا موسى خمسا وعشرين سنة في حكم ممالك مالى، عزيزا قويا في الداخل والخارج. ثم توفي وولي بعده ابنه منسا مَغا أربع سنين، قال ابن خلدون: "ومَغا عندهم محمد"[2]. ثم حكم أخو منسا موسى: منسا سليمان[3].

أفُق". فهي بالكاف الصريحة [WANKARA] أو بالكاف الفارسية [WANGARA].

[1] رحلة ابن بطوطة 240/2، وهو من حكاية ابن جزي عن الفقيه أبي القاسم بن رضوان، زيادة على كلام ابن بطوطة. والقُفّة: وعاء من القرع اليابس. انظر: تاج العروس مع القاموس. وفي بلاد السودان قرعة تجفف وتقطع نصفين ويجعل منهما وعاءين، وهو بأحجام مختلفة. استعمالها قديم ومستمر إلى يومنا هذا، ذكرها ابن بطوطة وغيره. وقوله: "فيترب" من: أتْرَب، ويجوز: تَرَّب، أي وضع عليه التراب. انظر: تاج العروس.

[2] تاريخ ابن خلدون 264/6–265. وكون "مغا" هو "محمد"، يمكن أن يكون قد حصل بعد الإسلام التعبيرُ "بمَغا" عن محمد؛ باختصار "محمد" إلى "مَحا" أو "مَعا" أو "مَغا"؛ فكل ذلك جائز نظرا لقواعد ألسنة مناطق نفوذ مالى ولهجاتها. ولكن المتأكد أن الاسم قديم؛ لأنه في اسم أشهر ملوك غانة، المعروف في مثل تاريخ الفتاش (26، 41) والروايات الشفهية بـ"كيمغ" بالمعجمة، أو "كيمع" بالمهملة. وهو اسم مركب من كلمتين أولاهما بمعنى الذهب، والثانية بمعنى ملك أو صاحب. بل "مَغَ" كاللقب العام لملوك غانه وبعض الممالك التي كانت تابعة لها.

[3] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6–265، وصبح الأعشى 282/5، والدرر الكامنة 383/4–384، ونقله عنه الشوكاني في البدر الطالع، وفي تاريخ مَنْدِى للعلامة سليمان كَنْتِي 63/3، 69، أن منسا موسى ومنسا سُنْجَتَ قبله كليهما ملكا عشرين سنة. لكن الذي عند ابن خلدون والقلقشندي نقلا عنه، أن منسا سُنْجَتَ ملك خمسا وعشرين سنة كذلك. انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6–270، وصبح الأعشى 282/5، ويحتمل أن يكون الاختلاف في مدة حكم منسا موسى خاصة ناشئة من طريقة انتقال الملك إليه بعد ركوب سَلَفِه البحرَ وفقده، فقد يكون الانتظار خمس سنوات، ويكون مَن عَدَّ سنوات الانتظار قال إنه ملك خمسا وعشرين سنة، ومن لم يعدَّها قال عشرين سنة، والله أعلم.

وذكر ابن فضل الله – نقلا عن ابن أمير حاجب – أن منسا موسى لما أراد أن يَحجّ، استناب ابنَه مَغا على مملكته، وكان ينوي بعد رجوعه من الحج؛ أن يتنازل له عن المُلك، ويعود إلى مكة ويقيم مجاورا بها، فعاجله أجله وحال دون تحقيق ذلك[1]. لكن المعروف أن منسا موسى توفي حوالي سبع سنوات بعد رجوعه من الحج، فالظاهر أنه منعه من التنازل عواملُ أخرى بالإضافة إلى عامل الزمن، دفعته إلى التريث في التنازل؛ لأن سبع سنين كافية لتحقيق ما كان يصبو إليه لو كان في فسحة من أمره.

ولم يقع في مصادرنا تحديدٌ لعمر منسا موسى حين حج؛ إلا ما قرّبه الذهبي من قوله في وصفه حين حج بأنه "شاب"[2]، ويؤخذ من مواضع من كتابه أنه يقصد بالشاب مَن دون الأربعين[3].

أما سنة وفاة منسا موسى فلم يصرّح به أيٌّ من مصادرنا، على رغم تفصيل بعضهم في أخباره، بيد أنه يمكن تحديد سنة وفاته من أدلة غير مباشرة مذكورة في مواضع، منها:

نصّ ابن خلدون أن منسا موسى توفي قبل وفاة سراج الدين ابن الكُوَيك[4]، ووفاة ابن الكُوَيك سنة 734[5]؛ فلا بد أن تكون وفاة منسا موسى قبل سنة 734 أو في وقت متأخر منها.

---

[1] انظر: مسالك الأبصار 120/4.

[2] العبر 69/7.

[3] ذكر الذهبي في العبر 89/3: الحافظ أبا بكر الحازمي محمد بن موسى الهمذاني، وقال: "توفي.. شابا عن خمس وثلاثين سنة"، وذكر فيه أيضا 197/4: شهاب الدين أحمد بن القماح، وقال: "توفي شابا لم يبلغ الأربعين".

[4] تاريخ ابن خلدون 495/5.

[5] كما في مصادر ترجمته، ومنها الدرر الكامنة.

نصّ ابن خلدون – والقلقشندي نقلاً عنه – على سلسلة ملوك مالى، وفترات حكمهم، وحدّد سنة وفاة أحدهم، وبالتناقص يمكن معرفة سنة وفاة منسا موسى، وهي سنة نهاية فترة حكمه:

منسا موسى، وحكم خمسا وعشرين سنة.

منسا مَغا، ابن منسا موسى، وحكم أربع سنين.

منسا سليمان، أخو منسا موسى، وحكم أربعا وعشرين سنة.

منسا "قنبتا"، ابن منسا سليمان، وحكم سنة أو تسعة أشهر.

منسا ماري جاطة، ابن منسا مَغا بن منسا موسى، وحكم أربع عشرة سنة، وتوفي سنة 775[1].

فبتناقص مُدَد الحكم لمن سبق منسا ماري جاطة، تقع وفاة منسا موسى سنة 733.

ويظهر من مجموع ما ذكر في أخبار منسا موسى أنه تولى الحكم في العشرين من عمره تقريبا، وأنه حَجَّ سنة 724 وهو شاب، وتوفي سنة 733، بعد أن حَكَم خمسا وعشرين سنة.

ومنه أيضا يتبين أن سلطان مالى الذي أوفد إلى أبي الحسن المريني لتهنئته بالغلبة على بني عبد الواد، والسيطرة على مدينة تلسمان عاصمتهم؛ هو خَلَف منسا موسى؛ لأن سيطرة أبي الحسن على تلمسان كانت سنة 737[2]، وذلك – على ما سبق – بعد وفاة منسا موسى بأربع سنوات، فيكون منسا مَغا، ابن منسا موسى، هو المُوفِدَ إلى السلطان أبي الحسن المريني، وذلك قبيل وفاة منسا مَغا؛ لذا ذكر ابن

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 268/6–270، وصبح الأعشى 282/5 فما بعدها، وانظر ترجمته في الدرر الكامنة (ماري جاطة)، وذكر ابن حجر وفاته في السنة المذكورة.

[2] كما في مصادر ترجمته، وفي تاريخ ابن خلدون 352/7–353، والاستقصا 118/3–187.

خلدون أن السلطان المُوفِد توفي قبل رجوع سفرائه[1]، فأدرك وفدُ السلطان المريني منسا سليمان في الحكم، وذلك كله موافق للمذكور آنفا من تسلسل السلاطين.

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 7/352–353، وقد حصل شيء من التردد فيه في تحديد السلطان المُوفِد، وفي علاقته بمنسا موسى؛ فذكر مرة أنه منسا موسى، ومرة أنه منسا سليمان، ثم مرة يجعل منسا سليمان أخا منسا موسى، وأخرى يجعله ابنَه، وانتقل التردد إلى الاستقصا للناصري؛ لكونه ينقل عنه. ويبدو لي أن سبب الإشكال أن منسا مَغا، ابن منسا موسى وخَلَفَه، تَتَداخَلُ فترة حكمه مع فترة حكم أبيه منسا موسى قبله، أو فترة حكم عَمِّه منسا سليمان بعده. والذي حصل في أخبار الوفد المُهَنِّئ أنه التبس بعمه، فأصبح منسا سليمان مرة ابن منسا موسى ومرة أخرى أخاه. والذي يعتمد أن انطلاق وفد مالي كان قبيل وفاة منسا مَغا، ووصل وفد أبي الحسن المريني الذي أرسله لرد التهنئة؛ إلى مالي بعد وفاة منسا مَغا وتولي منسا سليمان. والله أعلم.

الفصل الثاني
منسا موسى: الحاجّ

قبل بدء رحلة الحج

تمهيد في ذكر الحجاج من ملوك السودان

لم يكن منسا موسى أول مَن حج مِن سلاطين البلاد التي كان يحكمها؛ فقد ذكرت مصادرنا حَجَّ بعض ملوك تلك البلاد، وحجُّ بعضهم قديم، قبل سيطرة مالي عليها:

سلاطين حَجُّوا قبله

حجّ ملك زافُون، وفي طريقه إلى الحج، ورد مدينةَ مراكش عاصمة دولة المرابطين، والتقى فيها بسلطانها. قال ياقوت الحموي في وصفه ووصف مروره بمراكش: "مَلْكٌ ذُو قُوّة، وفِيه مَنْعَة، ولَه حاضِرة يُسَمُّونَها زافون[1]، وَهو يَرْتَحِل ويَنْتَجِع مَواقِع الغُيوث، وكذا كانَ المُلَثَّمون قَبلَ استِيلائِهم عَلى بِلاد المَغْرب، ومَلِكُ الزَافُون أقْوَى مِنْهُم وأعْرَف بِالمُلْك، والمُلَثَّمُون يَعْتَرِفُون لَه بِالفَضل عَلَيْهم، وَيَدِينُونَ لَه وَيَرْتَفِعُون إلَيْه في الحُكومات الكِبار.

"وَوَرَدَ هَذا المَلِكُ في بَعْضِ الأعْوامِ إلى المَغْرِب حاجّاً، عَلى أمِير المُسلِمين مَلِكِ المَغرب اللَّمْتُونِي المُلَثَّم[2]، فَتَلَقّاه أمِيرُ المُسْلِمِين راجِلاً، وَلَمْ

---

[1] زافون: اسم يطلق على الملك وعلى إقليمه وعلى عاصمته، وهذا متكرر في وصف بلاد السودان في كتب البلدان والجغرافيا، ومثله يذكر في غانة.

[2] الظاهر أن المقصود بأمير المسلمين: سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين أو ولده السلطان علي، وقد أكثر ياقوت من إطلاق "أمير المسلمين" عليهما في كتابه معجم البلدان، كأنه لقب لهما، ينظر منه مثلا 146/3، 310/4، بل قال في موضع منه 94/5 في ذكر مدينة مراكش: "وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المسلمين". ودولة المرابطين الملثمين ابتدأت من منتصف القرن الخامس الهجري، وكان اختطاط يوسف بن تاشفين مدينةَ مراكش سنة 454، وانفرد بحكم المرابطين حوالي 480، ويدل على أن المقصود هنا ابن تاشفين، وعلى العلاقة بين المرابطين وبين ←

يَنْزِل زافُون لَه عَن فَرَسه. قال مَن رَآه بِمُرَّاكش يَوْم دُخُوله إِلَيْها: وَكانَ رَجُلاً طَويلا، أسْوَدَ اللَّونِ حالِكه، مُنَقَّباً، أحْمَرَ بَياضِ العَيْنَيْن، كَأَنَّهُما جَمْرتان، أَصْفَرَ باطِنِ الكَفَّيْن، كَأَنَّهُما صُبِغَتا بِالزَّعْفران، عَلَيْه ثَوْبٌ مَقْطُوط[1] مُتَلَفِّع بِرداءٍ أبْيَض، دَخَلَ قَصْرَ أمِيرِ المُسْلِمِين رَاكِبا، وَأَمِيرُ المُسْلِمِين راجِلٌ بَيْنَ يَدَيْه"[2].

وكان أوَّلَ مَن حج مِن سلاطين مالى: بُرِمَنْدِى[3].

مناطق نفوذ مملكة غانة – ومنها مملكة زافون – ما في كتاب "الاستبصار في عجائب الأمصار" ص219، قال: "ذِكْر بِلادِ غانة وَما جاوَرَها مِن البِلاد: قِيل إنَّ غانة سِمَةٌ لِمُلُوكِها، وَإِنَّما اسمُ البَلَدِ أَوْكَار، وَوَقَعَ إِليّ كِتابُ مِلِكِها إِلَى يُوسف بنِ تاشفين، نَصُّه: إلى أَمِيرِ أَغَمات، قالَ غانة..".

[1] ينظر في المقصود بوصف الثوب بأنه "مقطوط".

[2] معجم البلدان 127/3، وذكر ياقوت أيضا "زافون" عند كلامه على غدامس في معجم البلدان 187/4 فذكر أن غدامس في جنوبي المغرب ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافون. وذكر ابن سعيد في الجغرافيا ص20 زافون وغانة في الجزء الذي ذكر فيه أوداغست وسجلماسة وأنهما في عرض واحد، وأن زافون لسودان كفار، ولصاحبها بيتٌ بَيْنَ مُلوك السودان، وقَدَّر ما بين زافون وأوداغست بخمس مراحل [أكثر من مائتي كيلومتر]. وذكرها ابن فضل الله العُمري في مسالك الأبصار 118/1. والغريب أن ياقوت الحموي وابن سعيد المغربي وفاتهما في القرن السابع، أحدهما يذكر حجّ ملك زافون، والآخر يقول إن زافون لسودان كفار، إلا أن يكون المراد على قول الحموي أن الرعية كفار في أغلبهم، بعد إسلام السلطان، كما يقع في بلاد السودان، والله أعلم. وَكل ما ذُكِرَ عن زافون في المصادر، يُغلِّب على الظن أنه الإقليم التاريخي المعروف: "جَافُنُ" أو "جاهُنُ" بالفاء أو الهاء بحسب اللهجات [JAFUNU] أو [JAHUNU]، ويقع اليوم في غرب جمهورية مالي مسامتا لحدودها مع موريتانيا، وينظر عن إقليم زافون ومواضع ذكره في المصادر العربية، وما وقع في اسمه من التغيير: دراسة جيدة بالفرنسية لتيديوز ليفنسكي Un État soudanais médiéval inconnu: le royaume de Zāfūnu. In: Cahiers d'études africaines, Vol. 11 N°44, 1971, pp. 501-525.

[3] ما وقع في كتابة اسم هذا العَلَم مثالٌ على صعوبة ضبط كتابة أعلام بلاد مالى في المصادر العربية. وقد حقَّق العلامة سليمان كَنْتِي: أنه (بُرِمَنْدِن) بإخفاء النون المتطرفة بعد الدال الممالة [BORIMANDEN]، وأنّ رواة تاريخ مَنْدن (مالى) يُسمونه: لَوُلُ، بإمالة ضمة الواو واللام الثانية [LAWOLO]، وأن هذا الاسم الثاني محرَّف من الكلمة العربية (الأول)؛ وأنه لُقِّب بذلك لكونه أوَّلَ مَن أسلم مِن ملوكهم. انظر: تاريخ مَنْدِى 73/1. ولا يخفى أن ما ذكره العلامة سليمان كَنْتِي تحتمله ←

ثم حج مَنْسا وَلِي بن ماري جاطة، من أبناء منسا سُنْجَتَ[1]، وذلك في النصف الثاني من القرن السابع، في عهد الظّاهِر بَيْبَرْس (658–676)[2]. قال القلقشندي بعد ذكره منسا وَلِي: "ومعنى ولي عَلِيّ"[3].

بنية الكلمة في بعض مصادرنا مثل (برمندان)، والإشكال يبقى فيما ذكره ابن خلدون في تاريخه 495/5–496 من الهاء بعد النون "برمندانه" ونَسَبَ الضبط بذلك إلى أحد فضلاء بلادهم، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى، وزاد ضبطه بالحروف، فقال: "بباء موحدة وراء مهملة مفتوحتين وميم مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة بعدها ألف ثم نون مشددة مفتوحة وهاء في الآخر، فيما ضبطه بعض علمائهم". وهذا الضبط يجعله بَرَمِنْدانَّه [BARAMINDAANNAH]، وليس الضبط بالحروف في نسخ تاريخ ابن خلدون التي اطلعتُ عليها، ومن تاريخه نَقَلَ القلقشندي هذا الموضع. ووقع عند المقريزي في كتابه درر العقود الفريدة 497/3 "برندامندانه". وفي كتابه الذهب المسبوك ص140: "سرمندانه" و"سربندانه"، بحسب النسخ كما أفاد محقق الكتاب، وزاد عبارة نقلها من القلقشندي لتصحيح عبارة المقريزي. وما زاده قد أفسد المعنى ولا حاجة إليه؛ فقول المؤلف "مَنْسا مُوسى مَلِكُ التَّكْرُور" عنوان فصل جديد معقود في ملكٍ حاج، ثم قال: "أَوَّلُ مَنْ حَجَّ مِنْ مُلُوكِ التَّكْرُور: سرمندانه، وَيُقالُ: برمندانه"، وهذه مقدمة لذكر الحجاج مِن ملوك بلاد مالِّي قبل منسا موسى الذي عقد الفصل لحجه، ثم قال: "ثُمَّ حَجَّ مَنْسا.." بداية الكلام على حج منسا موسى.

[1] قال ابن خلدون في حديثه عن منسا سُنْجَتَ، وقد سماه "ماري جاطة" 266/6: "وَمَعْنَى مَارِي عِنْدَهُم الأمِير الَّذِي يَكُون نَسْلَ السُّلْطان، وجاطة الأسد".

[2] ترجمته في المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي.

[3] صبح الأعشى 282/5. ويكون هذا مبنيا على أن أهل مالى لما كانوا يقلبون العين العربية همزة، ثم يصعب عليها النطق بالهمزة في أول الكلمة، فالغالب حذفها أو التلفظ بها همزةً بعدها نون مخفاة، وكون الكلمة هنا من حرفين يجعل الحذف ثقيلا؛ فحولت إلى الواو، وعليه يكون ضبط الكلمة بفتح الواو [MANSA WALI]. و"وَلِي" من أسماء الرجال في مناطق نفوذ مالى وغيرها من بلاد السودان. وبنية الكلمة تحتمل أن يكون بضم الواو وإمالة كسرة اللام [MANSA WULE] بمعنى: السلطان الأحمر. وهو تركيب شائع في الأسماء والأعلام في بلاد مالى، وهو الذي ذكره العلامة سليمان كَنْتِي في سلسلة ملوك مالى في كتابه "تاريخ مَنْدِى" 63/1. وقارن هذا بما ذكره ابن خلدون أن "مغا" هو محمد؛ فلا يستبعد أن الأسماء السودانية السابقة على الإسلام قد وجدت بعد الإسلام مقابلات عربية؛ لِملابسةٍ ما.

وآخِر مَنْ حَجّ مِن مُلوك مالى قبل مَنسا موسى: مَنْسا سَكُرَ[1]، وهو أحد موالي بيت سلاطين مالى، تَغَلَّب على حكمها، واتسعت الدولة في عهده، فحَجَّ في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذي في عهده حَجَّ منسا موسى. قُتِل منسا سَكُرَ عند مرجعه من الحج، في محلة تاجُوراء قرب طرابلس، عاصمة دولة ليبيا الحالية[2].

وقد حج مع منسا موسى جماعة من ملوك بلاد السودان التي في طاعته[3].

سلاطين حجُّوا بعده

أما بعد منسا موسى فقد قَدِم من مالى أحد ملوكها سنة 752، وطلب من المراسم السلطانية في مصر إعفاءه من الدخول على السلطان، وسار بقومه مِن مصر إلى بلاد الحرمين، وذلك أوائل ذي القعدة من العام المذكور[4].

---

[1] هجاء الاسم عند ابن خلدون، وعنه القلقشندي؛ مرة بالسين "ساكورة"، وأخرى بالصاد "صاكورة"، ويحتمل أنه: مَنسا سَكُرَ [MANSA SAKURA]، وفيه كتابة علم من أعلام بلاد مالى بالصاد العربية، وهو حرف لا وجود له الآن في ألسن بلاد مالى. والعلامة سليمان كَنْتِي ذكر سَكُرَ (SAKURA) أو سَبُكُرَ (SABUKURA) في ملوك مالى، انظر: تاريخ مَنْدِى 63/3–69. وفي تاريخ ابن خلدون 495/5–496 بعد إيراد الهجاء السابق: "وقال الشيخ عثمان: ضَبْطُه بِلِسانِهم.. سيكرة"، بالياء بعد السين، وهذا الهِجاء لعله يناظر الاسم الذي ذكره سليمان كَنْتِي "سَبُكُرَ" وتكون الباء تحرفت إلى ياء. ويحتمل الرسم بالياء أيضا أنه شِكُرَ، [TCHEKURA]، بإمالة الحرف الأول، وهو حرف بين الكاف والشين، أو الكاف في بعض لهجات بلاد مالى، وهو اسم مركب بمعنى الرجل الجديد أو الضيف، ولم يزل شائعا في بلاد مالى، عَلَما أو وصفا.

[2] انظر: تاريخ ابن خلدون 495/5–496، 264/6–270، وصبح الأعشى 282/5، والذهب المسبوك للمقريزي ص140.

[3] البحر المحيط لأبي حيان 96/8.

[4] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك 149/4، وقول المقريزي: "وَفِيهِمْ مَلِكُهُم" يحتمل أنه السلطان العام، ويحتمل أنه مَلِكٌ دون السلطان، يحكم إقليما تابعا، وهذا ما نرجّحه؛ لأنّ السلطان العام في بلاد ←

وبعد أكثر من قرن من حج منسا موسى، قَدِم حاجا في شوال سنة 835، أحدُ ملوك بلاد مالى، في جماعة من قومه، ومعهم رقيق وخيل وثياب، وشُدِّد عليهم في مصر في أخذ المكوس على ما جلبوه[1].

وحج أحد ملوك بلاد مالى سنة 836، فسار إلى ميناء الطُّور على البحر الأحمر؛ ليركب البحر إلى مكة، فمات بالطور[2]، ودفن بجامعه. وصفه المقريزي فقال: "وكانَ خَيِّراً كَثِيرَ التِّلاوةِ لِلْقُرآن، فِيه بِرٌّ وإحْسان"[3].

وبعد حج بعد منسا موسى، حكى تاريخ الفتاش وتاريخ السودان حجّ أحد عظماء ومشاهير سلاطين بلاد السودان، وهو أَسْكِيا محمد، سلطان سُغَيْ

مالى في العام المذكور (752) هو منسا سليمان أخو منسا موسى، ولم يُعْرَف أنّه حَجَّ. وقد ينشئ هذا الموضع من المقريزي ظناً — والله أعلم – بأن منسا سليمان حَجَّ، لكن متخفيا، رافضا الدخول إلى سلطان مصر، ولم يشأ أن يُحْدِث لحَجِّه مثلَ الصِّيت الذي رافق حج أخيه؛ خاصة وأن خزائن الدولة قلّ مضمونها في عهده. واستعفاء الملك المذكور من الدخول على السلطان يربطه بمنسا موسى ربطا ما؛ وأن غرضه من استعفائه ألا يضطر إلى تقبيل الأرض كما طلب من سلفه منسا موسى.

[1] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك 236/7، 239، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر 473/3.

[2] الظاهر أن المقصود هنا طور سيناء، وهو على الجانب الغربي من بحر القلزم (البحر الأحمر)، وبه جَبَلٌ مرتفع يدخل في البحر، مما يجعل من المكان ميناء طبيعيا؛ فكان الحُجاج المارّون بحاضرة مصر يركبون البحر هناك للعبور إلى أرض الحجاز. وفي السلوك للصفدي في حوادث شهر جمادى الأولى من سنة 833، أن المكوس كانت تؤخذ من تجار الهند فتحمل من "جدة إلى الطور ثم [تحمل] من الطور إلى مصر". وفي صبح الأعشى 251/3 في كلامه عن أحد البِحار: "ثم يعطف شمالا حتى ينتهي إلى فُرْضة الطور، وهي مكانُ حطٍ وإقلاع لمراكب الديار المصرية". وانظر الطور في: معجم البلدان، والجغرافيا لابن سعيد ص41.

[3] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك 236/7، 239، وإنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر491/3، ومنه التصحيح إلى سنة 836؛ ففيه أن موت الملك في الطور من حوادث سنة 836، وهو أوضح مما ذكره الصفدي (سنة 835)؛ لأن الصفدي في السلوك ذكر حَجّ هذا الملك بعد صفحتين من ذكر قدوم ركب التكرور في شوال ووفاته بالطور، فغلب على الظن أنه حصل في كتاب السلوك، تداخلٌ في حوادث السنتين (835، 836).

وغرب بلاد السودان؛ خرج للحج وزيارة المدينة النبوية في صفر عام 902، بعد أن تَمَكَّن في السلطة وسيطر على بلاد وممالك كثيرة. كان برفقته جماعة من أعيان البلاد والأقاليم التي في طاعته، وتصدّق في بلاد الحرمين بمال وذهب كثير، واشترى أراضي أوقفها على العلماء والمساكين[1].

من دوافعه إلى الحج

انفرد تاريخ الفتاش بذكر دافع غريب، ذكر أنه كان وراء عزم منسا موسى التوجّه إلى الحج وزيارة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، نَقَلَهُ عن أحد طلاب العلم الوافدين من بلاد مالى. قال: "وَلِحَجِّه سبَبٌ حَكاهُ لِي الطّالِبُ الحافِظُ لِقَصائِص الأوائل، وهو مُحَمّد قُمَ[2] رحمه الله، ذَكَر أن مَلِّكُيْ كَنْكُ موسى.. قَتَلَ أُمَّهُ نانا كَنْكُ[3]؛ خَطَأً، وأَسِفَ لِذلك ونَدِمَ وخاف عُقوبةَ ذلك، وتَصَدَّق بمالٍ جَسيم، وَعَزَم على صَوْم الدَّهْر. وَسَأل بَعضَ عُلماءِ زَمانِه عَمّا يَفْعَل في الاسْتِغفار لِهذا الذَّنب العَظِيم؟ فقالَ لَه: أَرى أنْ تَفْزَع إلى رَسول الله صلى الله عليه وسلم، وتَهْرُب إلَيه، وتَدْخُل في حُرْمَته وتَسْتَشْفِع بِه، وسَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِيك،

---

[1] انظر: تاريخ الفتاش ص16، وتاريخ السودان للسعدي ص72، وحدَّدا ما تصدق به على أهل الحرمين بمائة ألف دينار ذهبا، وأنه اشترى بمثل ذلك أراضي وبساتين؛ فيكون مجموع ما أنفقه في الصدقة وشراء الأراضي في الحرمين: مائتي ألف دينار ذهبا. وهذا مبلغ كبير، ينظر إذا كان ثمة ما يؤيده من مصادر مشرقية؛ في مصر أو بلاد الحرمين أو غيرهما. والله أعلم.

[2] قال كعت في موضع آخر منه ص35: "وقُمَ قَبِيلةٌ، ومِنْها يَخْرُج قاضِيهم". وعلى طريقته في كتابة أعلام السودان يبدو أنه اسم بيتٍ من بيوت العلم والمشيخة إلى اليوم في مناطق نفوذ مالى، وهو بالقاف أو الكاف باختلاف اللهجات [QUMA] أو [KUMA].

[3] كلمة "نانا" المذكورة قبل الاسم، يحتمل أن تكون رتبة أو اسما عاما لمن في رتبتها، ولم تزل الكلمة اسما للنساء إلى اليوم في أنحاء من بلاد السودان، إما مستقلة أو مضافة إلى الاسم كما هنا. وفي تاريخ مَنْدِى، في ذكر المرأة التي ذهبت مع نفرٍ من مالى لطلب منسا سنجت في منفاه؛ أن اسمها: نانا تِرِنْبَا [NANA TIRINBA].

وهَذا هُوَ الرَّأي. وعَقَدَ العَزمَ والحَزم عَلى ذَلك في يَوْمِه"[1].

وهذا سببٌ لم ينتشر في المشرق، ولم يشأ منسا موسى أن يُطلِع عليه مَنْ انبسط في الحديث معهم، خصوصا في مصر، مثل الأمير المملوكي ابن أمير حاجب، وأحمد الجاكي المهمندار الذي تلقاه عند قدومه من مالى وعند عودته من الحجاز، ومُهَنّا العَجْرَمي، دليله، وأبي عيسى الزواوي، والمعمر الكُومي الذي استصحبه من غَدامس إلى مالى في عودته.

والظاهر أن حجة منسا موسى سنة 724 هي حجته الأولى، يدل عليه قول ابن خلدون إنه "قَضَى فَرْضَهُ"[2]. وأنها حَجَّتة الوحيدة، لم يحج بعدها حتى توفي بعد سبع سنوات من عودته إلى بلده.

كثرة الذهب والأموال والمؤن التي جلبها

كلَّف رحلة حج منسا موسى أموالا طائلة؛ فالأمر الذي لم يختلف فيه جميع المصادر التي ذكرت منسا موسى وحجته؛ أنه جَلَب معه من بلده ذهبا كثيرا، وطبعت كثرةُ الذهب أذهانَ أهل البلاد التي مرَّ بها، وأذهان أهل البلاد البعيدة الذين سمعوا بحجته؛ فشاع في كل العالم أن بلاده بلاد الذهب.

ومقدار الذهب الذي جلبه من بلاده بلغ حِمل مائةِ جَمَل، مقدار حِمل كل جَمَل يساوي وَسْقا، أي ستون صاعا؛ نقله ابن فضل الله العُمَري عن ابن أمير حاجب[3].

ونقله ابن خلدون وابن حجر بصيغة التمريض: "فِيما يُقال"[4]، ثم نقل ابن

---

[1] تاريخ الفتاش ص33.

[2] تاريخ ابن خلدون 496/5.

[3] مسالك الأبصار 121/4، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 284/5، والشوكاني في البدر الطالع 314/2، ومع كونه ينقل عن ابن حجر في الدرر؛ فإنه لم يتابعه في صيغة التمريض في مقدار الذهب.

[4] تاريخ ابن خلدون 495/5-496، وانظر: الدرر الكامنة 383/4-384.

خلدون بعد ذلك رواية أخرى عن أحد ساكني مصر الوافدين من بلاد مالي؛ أنه قدَّره بثمانين جَملا، كل جَمَل يَحمِل ثلاثة قناطير[1].

وعلى التقديرين يساوي الذهب الذي جلبه من بلاده، حوالي عشرة آلاف كيلو، أي عشرة أطنان من الذهب[2]. ولا نرى عشرة آلاف كيلو ذهب مبالغا فيها؛ نظرا إلى قوة وعظمة منسا موسى، وسعة ممالكه، وهي مناسبة لما ذُكر من تأثر سعر الذهب في مصر أكثر من عشر سنوات؛ فذلك لا يكون إلا في مثل هذه الكمية الكبيرة. والله أعلم.

أما ألفع محمود كعت فقد نقل عن أحد مشايخه أنه كان معه أربعون بغلة من الذهب[3]. وما ذكره مخالف لما ذكره غيره في مقدار الذهب وفي المطية التي حمل عليها، وشَيخه الذي روى عنه بعيد جدا عن زمن الحدث، وذلك يُرجِّح ما قاله غيره.

وكان الغرض من حَمل الذهب نفقته الخاصة، والإحسان والتصدق والبر به في طريقه؛ فقد أنفق على القبائل التي كانت في طريقه من بلاده إلى الحجاز مرورا بمصر.

يضاف إلى هذا القدر من الذهب ما اقترضه في مصر من تجارها، لما عاد من الحجاز، ووَفَّى به راجحا بعد رجوعه إلى بلاده. ولم يقع تقدير ذلك في

---

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-270.

[2] وذلك على حساب أن حِمل بعير حوالي ستين (60) صاعا، والصاع ألفان ومائتا (2200) غرام تقريبا، وأن القنطار مائة (100) رطل في مصر، والرطل حوالي أربعمائة (400) غرام؛ فمائة قنطار أكثر من عشرة أطنان على أن عدد الجمال مائة، وقريب منها على قول من جعل عدد الجمال ثمانين. انظر تقدير الوَسْق والصاع والقنطار في: صبح الأعشى للقلقشندي 172/5، وتاج العروس مع القاموس، ومعجم لغة الفقهاء، وهو مقارب كذلك لمواضع من تاريخ ابن خلدون، وازن فيها بين القنطار والدينار، منها قوله (440/1): "ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا" (أي 2.000.000 دينار = 200 قنطار، و10.000 دينار = 1 قنطار)"، وانظر مثله أيضا: 221/1.

[3] تاريخ الفتاش ص36.

المصادر؛ وإنما قدروا الأرباح الطائلة التي جناها تجار مصر من إقراضهم منسا موسى وقومه؛ فنقل ابن فضل الله أنهم ربحوا سبعمائة دينار في كل ثلاثمائة دينار. ولم يظهر لي أهذه مشترياتٌ عينية زِيدَ في أسعارها؛ فتكون من الغبن والربح الفاحش، أم دنانير أقرضوها؛ فتكون من الربا الصريح، ويقوّي الاحتمالَ الثاني قولُ ابن خلدون: "فَأَقْرَضُوهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينار"[1]. وهذا مشكل على قواطع النصوص الشرعية أخذا وعطاء، إلا أن يكون منسا موسى مضطرا في العطاء؛ بسبب انقطاع السبيل، وللحفاظ على ناموس الملك وأبّهة الرئاسة، لكن الإشكال يبقى كاملا في الآخذين الانتهازيين، المستغلين حاجة السلطان استغلالا بشعا!

كما يضاف إلى ذلك ثمن بيعه القصرَ الذي أقطعه السلطان محمد بن قلاوون، لِسَكَنه حين قدم من مالي، ولم يقع لنا كذلك تقدير ثمن ذلك في المصادر، ولكن نفترض أنه باعه بأقل من سعره الحقيقي بكثير، على مثل نسبة ما حصل في مقدار الربح الذي جناه التجار فيما سبق آنفا.

وهذا القدر الكبير من الذهب لم يجمع منسا موسى كُلَّه من خزانة دولته؛ بل جمعه منها ومن جُود رعاياه في كل الأراضي التي تحت طاعته؛ قال ألفع محمود كعت: "وَقامَ يَجْمَعُ المالَ والجهازَ لِلسَّفَر، ونادَى مِن أرْضِه مِن كُلِّ جانِب، يَطْلُب الزّادَ والعَوْن"[2].

واستمرّ حمل الذهب الكثير؛ من حجاج بلاد مالى بعد منسا موسى[3]،

---

[1] تاريخ ابن خلدون 5/495-496.

[2] تاريخ الفتاش ص33.

[3] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، حوادث عام 819 (419/6)، وحوادث عام 842 (415/7)، وإنباء الغمر، حوادث عام 819 (99/3).

وهي كثرة نسبية؛ فإن ذلك لا يَقْرُب مما حمله منسا موسى من الذهب؛ إذ قد عدَّى هو حواجز المعقول وسَجَّل ما لم يدركه سلطانٌ بعده.

وحَمَل منسا موسى قدرا كبيرا من الغذاء له وللعدد الكبير من مرافقيه؛ فقد ذكر ألفع محمود كعت بأن منسا موسى كان يَأْتَدِم في كل طريق الحج — غداء وعشاء — باللحم والسمك والخضار[1].

جموع الحجاج والاستعدادات

جَمَعَ موكب منسا موسى أعدادا كبيرة وأنواعا مختلفة من البشر، مجموعات وأفرادا، بعضهم يؤدي مهمة معينة، وموكول إليه عمل يخصه. منهم مَن صحبوه مِن بلاد مالى، ومنهم مَن التحقوا بموكبه في الطريق، وكثير من هؤلاء التحقوا من مصر لَمّا نزلها. وممن ذَكَرَتْهُم المصادر من موكب منسا موسى:

- زوجته، واسمها: انار كنت[2]، ومعها خمسمائة امرأة في خدمتها[3]؛
- بعض سلاطين الممالك التي فتحها منسا موسى، وأصبحت تحت طاعته[4]؛
- بعض الأمراء والنوّاب على الأقاليم والبلدات، منهم فَربا مَغا، وكان حاكما على بلدة مرّ بها ابن بطوطة في طريق عودته من عاصمة مالى[5]؛
- أعيانٌ مِن سكان مالى، منهم القاضي أبو العباس الدّكالي، صَحِبَه مِن مالى[6]؛
- أدلة الطريق المرشدون، منهم: مُهَنّا بن عبد الباقي العَجْرَمِيّ[7]؛

[1] تاريخ الفتاش ص34.

[2] سيأتي قريبا تحقيق اسمها في نص منقول من تاريخ الفتاش ص: 98.

[3] انظر: تاريخ الفتاش ص34.

[4] انظر: البحر المحيط 96/8.

[5] رحلة ابن بطوطة 245/2.

[6] انظر: رحلة ابن بطوطة 237/2.

[7] انظر: مسالك الأبصار 125/4، ولم أجد له ترجمة، مع أنه مذكور باسمه الثلاثي، وبمِهنته. والعَجْرَمي مذكور في الأنساب العربية، وهي نسبة إلى "بني عجرم"، وهم من العرب القحطانية، سكنوا البلقاء ←

- آلاف من العسكر والخَدَم والرعايا، مِن أهل مالى، ومِن المغاربة[1]. قدرهم الصَّفَدي بعشرة آلاف[2]؛ وقدَّرهم ابن كثير بنحو عشرين ألفا[3]، وقدّر ابنُ خلدون الخدَمَ وحدهم باثني عشر ألفا[4]، وقدّر المقريزي الخدم من الجواري وحدهنّ بأربعة عشر ألف جارية[5]، وقدّر ألفع محمود العسكرَ مرة بثمانية آلاف، ومرة أخرى نقل أنهم كانوا ثمانية آلاف وسبعمائة، ثم قال: "وقال غيره تسعة آلاف كاملة"[6].

مراحل رحلة الحج، من مالى إلى مصر

سلك منسا موسى لرحلة الحج طريق الصحراء إلى مصر، ثم الحجاز، وترك طريق ساحل البحر الأبيض المتوسط، التي سلكها قبله منسا سَكُرَ من سلاطين مالى، الذي قُتِل في طريق عودته في بلدة تاجوراء الواقعة على ساحل البحر الأبيض[7]. وتجَنُّب منسا موسى طريق الساحل لعله بسبب ذلك. والله أعلم.

تَقَدَّم رأس موكب الحج السلطاني؛ فانطلق من عاصمة مالى واتجَّه شمالا،

من بلاد الشام. انظر: الأنساب للسمعاني 159/4، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي ص323، 350.

[1] انظر: العبر للذهبي 69/4، ومرآة الجنان لليافعي 204/4، والبداية والنهاية لابن كثير 240/18-242.

[2] انظر: أعيان العصر 477/5.

[3] انظر: البداية والنهاية 240/18-242.

[4] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-270، ونقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى 284/5. قارِن هذا العدد بما ذكره المقريزي في كتابه السلوك 405/3، أن عدد حجاج بلاد مالى سنة 744 خمسة آلاف، وذلك عشرين سنة بعد حجة منسا موسى.

[5] الذهب المسبوك ص144.

[6] انظر: تاريخ الفتاش ص35، ونقل عن مصدره موازنة بين موكب منسا موسى وموكب أسكيا محمد، وموكب الباشا علي بن عبد القادر، فالأول خرج بثمانية آلاف، والثاني بثمانمائة، والثالث بثمانين.

[7] انظر: تاريخ ابن خلدون 495/5-496. وتوجد اليوم بلدة تاجوراء في ضواحي طرابلس عاصمة ليبيا.

حتى وصل إلى مدينة تنبكتُ الواقعة اليوم في شمال جمهورية مالى، ثم لحق منسا موسى بالموكب هناك. وذكر الفتاش سببا غريبا في تأخر منسا موسى عن رأس القافلة، وهو أن أحد المشايخ اختار له يوما للخروج، وهو يومُ سبتٍ يوافق ثاني عشر من شهرٍ، فبقي في عاصمته ينتظر ذلك اليوم، فانطلق رأس القافلة، ولم يحصل اليوم المذكور إلا بعد تسعة أشهر[1].

ثم من تنبكتُ أخذت القافلة طريق الغرب حتى وصلت بلدة ولاته الواقعة اليوم في جنوب شرق جمهورية موريتانيا.

ثم توجهت شمالا مائلا قليلا إلى الشرق، حتى وصلت منطقة تَغَازَى الواقعة اليوم في أقصى شمال جمهورية مالى.

ثم مَرَّت بمنطقة تُوَات[2] الواقعة اليوم في جنوب جمهورية الجزائر.

ثم تابعت القافلة الاتجاه شمال شرق حتى وصلت بلدة غَدامس[3] الواقعة

---

[1] انظر: تاريخ الفتاش ص33.

[2] انظر هذه الطريق في تاريخ الفتاش ص32-34؛ وذكر تنبكتُ وتوات وتغازى، وتاريخ السعدي ص7؛ وذكر ولاته وتوات. أما تغازى فذكرها ابن بطوطة في طريق ذهابه إلى بلاد مالى، وأنها قرية وصلها بعد خمسة وعشرين يوما من مغادرة سجلماسة، ويسكنها بربر مسوفة، وأن بها مِلحا كثيرا جدا يُصَدَّر إلى البلاد المجاورة، ويُجلَب إليها بعض مأكولات بلاد السودان. انظر: في رحلة ابن بطوطة 230/2. وفي موسوعة ويكيبيديا [Taghaza] أنها مَلّاحة قديمة، وتبعد بحوالي 780 كيلومتر شمال غرب تنبكتُ، وقد هُجِرت وأنشئت بدلها في القرن السابع عشرة الميلادي على بعد 150 كيلومتر في الجنوب الشرقي، ملاحة "تَوْدِنِي"، التي تقع مثل تغازى، في جمهورية مالي الحديثة. أما تُوات فهي واحة تتكوّن منها ولاية أدرار الواقعة وسط وجنوب الجزائر، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية العابرة للصحراء، وتبعد عن تنبكتُ بـ 1150 كيلومتر. انظر: وكيبيديا [Tuat]، ومعجم روبرت للأعلام [Adrar].

[3] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-270؛ ذكر غدامس في طريق العودة، ونظن أنها كانت في طريق الذهاب كذلك؛ لأنها في خط مباشر بعد منطقة توات في اتجاه الشمال الشرقي إلى منطقة ←

اليوم غرب وسط ليبيا، عند ملتقى حدودها مع الجزائر وتونس.

ومن غدامس واصلت القافلة سيرها شرقا، حتى خرجت عند منطقة الأهرام في البلاد المصرية.

وكان وصوله في عاصمة مصر في شهر رجب من عام 724[1].

الإنفاق في طريق الحج من مالى إلى مصر

لم تتطرق مصادرنا المشرقية إلى إحسان منسا موسى وإنفاقه في طريقه مِن مالى إلى مصر؛ لأنهم إنما اتصلوا به بعد وصوله إلى مصر، ولا أسعفنا ألفع محمود كعت والسعدي بتفاصيل دقيقة، إلا حكايات متفرقة عند ألفع محمود كعت؛ ولعله لبعد زمانهما عن زمان منسا موسى.

أما ابن بطوطة فقد سمع في رحلته، حكايةَ قاضٍ مِن المغاربة صَحِب منسا موسى من مالى. وذكر ابن بطوطة أن منسا موسى أحسنَ إلى القاضي المذكور بأربعة آلاف مثقال؛ لنفقته في الحج[2]. وهذا العطاء يعطي رؤية تقريبية لإنفاق منسا موسى على مرافقيه في طريق الحج، ويثير فينا ظنا غالبا بأنه أنفق بسخاء على مَن مرّ عليهم في طريقه من الوجهاء والأعيان وغيرهم من عامة الناس.

حادثتان في طريق الحج

سرقة مصطنعة

انفرد ابن بطوطة بنقل هذه الحادثة في طريق الحج، فَلْنَدَعْهُ يَرْوِيها، قال:

الأهرامات في مصر. وغَدامس: مدينة تاريخية ببلاد المغرب، كان يسكنها البربر الملثمون. انظر: معجم البلدان، والروض المعطار، وانظر: خريطة ليبيا.

[1] وسيأتي ذلك إن شاء الله، في ذكر وصوله مصر. وانظر خريطة طريق الحج ص: 134.

[2] انظر: رحلة ابن بطوطة 2/245-246.

"أخْبَرني فَربا مَغا أنَّ مَنسى موسى.. كانَ مَعَه قاضٍ مِن البِيضان، يُكَنَّى بِأبي العَبّاس، وَيُعرَف بِالدُّكّالي، فَأحْسَن إِلَيه بِأربَعة آلاف مِثْقال لِنَفَقَتِه، فَلَمّا وَصَلُوا إلى ميمة[1]، شَكا إلى السُّلطان بِأنّ الأربَعةَ آلاف مِثْقال سُرِقَت لَهُ مِن دارِه، فاستَحضَر السُّلطانُ أميرَ ميمة، وَتَوَعَّدَه بِالقَتل إنْ لَمْ يُحضِر مَن سَرَقَها. وطَلَب الأميرُ السارِقَ فَلَمْ يَجِدْ أحَدا؛ وَلا سارِقَ يَكون بِتِلْكَ البِلاد. فدَخَل دارَ القاضي واشتَدَّ عَلى خُدَّامِه وَهَدَّدَهم، فَقالَتْ لَهُ إحْدَى جَوَارِيه: ما ضاعَ لَهُ شَيْءٌ، وإنَّما دَفَنَها بِيَدِه في ذَلك المَوضِع، وأشارَت لَه إلى المَوْضِع. فأخْرجَها الأَمِير، وَأَتَى بِها السُّلطان، وعَرَّفَهُ الخَبَر. فغَضِب على القاضي، ونَفاه إلى بِلاد الكُفّار الَّذِين يَأكُلُون بَنِي آدَم، فأقامَ عِنْدَهم أربعَ سِنين ثم رَدَّه إلى بَلَدِه"[2].

بُحَيرة اصطناعية

من الحوادث التي وقعت في طريق الحج قصةٌ طَريفة انفرد بنقلها تاريخ الفتاش، وسَرَدها بأسلوبه الخاص، الذي يُحاكي أسلوب الرواية بألسنة بلاد مالى، قال: "وحُدِّثتُ أَنَّهُ خَرَجتْ مَعَه زَوْجَتُه المُسَمّاةُ انارِ كُنْتِ[3]، مع خَمْسمِائة

---

[1] لم أقف على تحديدها. وذكر الزهري في كتاب "الجعرافية" ص125-126: "أميمة" بالهمزة، من أمم السودان، وجعل بلادهم في شرق صحراء المغرب، جنوب بلاد غانة، بمقربة من النهر اهـ. وعلى هذا تكون "ميمة" بين عاصمة منسا موسى وبين تنبكتُ على نهر النيجر، وذلك في طريق حجه.

[2] رحلة ابن بطوطة 246/2.

[3] ضبطها العلامة سليمان كَنْتِي بفتح النون وإمالة كسر الراء [NARE] انظر: تاريخ مَنْدِى 70/3، ونَرِ [NARE] من أسماء النساء، واسم والد منسا سنجتَ [NARE MAKAN]، و"نَرِ" أمه على قاعدة تركيب الأسماء في مناطق نفوذ مالى. وأما الألف في أول الاسم على ما في الفتاش، فيحتمل أنها من الحرف شبه الغنة الذي في بداية بعض الأسماء في بعض لهجات مناطق نفوذ مالى، وهو مثل ضمير المتكلم في بعض ألسن بلاد مالى. ويحتمل أن يكون همزة مكسورة [INARE]. أما الاسم الثاني "كنت" فيشبه أن يكون لقب البيت الذي تنتمي إليه زوجته، بإمالة ضم الكاف وإخفاء النون ←

نِسْوتِها وخَدَمِها، إلى أَنْ نَزَل بمَوضعٍ مِن صَحارى بَيْنَ تُوَات وَتَغَازَ، وَضَرَبُوا بِها العَطَن، وباتَتْ زَوْجَتُه تِلْكَ مَعَه في فُسْطاطِهِ ساهِرة، ونامَ هُو. ثُمَّ استيقَظَ ووَجَدها ساهِرةً لَمْ تَنَم، فَسَألَهَا: أما نِمْتِ؟ ما لَكِ؟ فَما أَجابَتْه. فبَقِيَتْ إلى نِصْفِ اللَّيل. ثُمّ اسْتَيْقَظَ فَألْفاها كَذَلكَ ساهِرة، فأنْشَدَها بِاللهِ عَمّا أَصابَها؟ فَقالَتْ: لَيْستْ إِلّا وَسَخ بَدَنِي ودَرَنُها، وقَدْ تَمَنَّيْتُ البَحرَ؛ فأغْتَسل وأخُوض وأغْتَمِس وأعُوم، فهَلْ لَكَ تَحْصِيلُ ذَلِكَ وإيجادُه في مُلْكِك!؟

"ونَهَضَ كَنْكُ موسى جالِساً، وغاظَه ذَلِك، وجَلَسَ مُتَفَكِّراً. ثمّ أمَرَ بِعَبْدِهِ الَّذِي هُوَ رَئِيس عَبِيدِه وقَومِه، المُسَمَّى فَرْبَ[1]، ونُودِي وأَتَى وأحياهُ تَحِيّةَ الملك... فَلَمّا فَرَغ فَرْبَ مِن تَحِيَّته قالَ لَهُ: يا فَرْبَ! مُنذُ تَزَوَّجْتُ بِزَوْجَتي هَذِه ما طَلَبَتْ مِنْهُ [كذا] وما خاطَبَتْني بِما تَقْصُرُ عَنْهُ قُدرَتي، ولا بِما لَيْسَ في ملْكِي ويَعْجَزُ عنه قُدْرَتي، إِلّا في هَذِه اللَّيْلة؛ فقَدْ سَألَتْني البَحرَ[2] وإيجادَها مِن العَدَم في

وإمالة كسر التاء الأخيرة [KONTE] وهو من الألقاب المشهورة في بلاد مالى، وهو لقب بيت والدة منسا سنجتَ، ويختلف النطق بتائها بحسب اللهجات؛ فتصبح دالا أو نونا [KONDE] و [KONE]، وتكون كافها خاء أو قافا في لهجات [KHONTE]. ويحتمل أنه بفتح الكاف [KANTE]، وهو أيضا من ألقاب البيوت في مناطق نفوذ مالى، لكن الأول أقرب. والله أعلم.

[1] فَرْبا عند ابن بطوطة من أمراء بلاد مالى، وهو نائب الملك والحاكم في جهةٍ. ذكر ابن بطوطة في رحلته "فربا حُسين" الحاكم على وَلاتَه (233/2)، و"فربا موسى" على تنبكتُ (247/2)، و"فربا مَغا" على قرية كبيرة تقع على خليج وَصَلَه بُعَيْد مغادرته عاصمة مالى في طريق العودة (245/2)، و"فربا سليمان" على بلدة نسي ابن بطوطة اسمها، وهي بلدة وصلها بعد مغادرة تنبكتُ في طريق العودة (247/2). والظاهر أن تاريخ الفتاش أطلق على مَن في خدمة السلطان أنه عَبْده، وإن لم يكن رقيقا. وابن بطوطة يرسم الكلمة بألف متطرفة ممدودة (فربا)، ورسْمُها هنا بدون الألف المتطرفة، وهي طريقة مطردة في تاريخ الفتاش وتاريخ السودان للسعدي؛ في كتابة أعلام بلاد السودان، مثل "مَلَ" أو "مَلّي" بدل "مالي".

[2] الظاهر من مواضع في تاريخ الفتاش أنه يستعمل "البحر" للنهر؛ فلعله قصد هنا نهر النيجر، أو أحد روافده، أو إحدى البحيرات، يؤيّده تحديده ما بينه وبين البحر بمسيرة نصف شهر، وذلك أقل من ←

قِفارِها، وبَيْننا وبَيْنَ البَحرِ مَسيرةُ نِصفُ شَهْر، ولَيْسَ لِهذا مُوجِدٌ إلا اللهُ وَحْدَه، فقد أعْجَزَتْنِي الآن، فقال فَرْبَ: فَعَسى اللهُ أنْ يُصْلِحَه عَلَيكَ.

"فخَرَج فَرْبَ باكياً يَضربُ صدْرَه إلى مَوضِع نُزوله، ونادَى العَبيد، وحَضَروا أسْرَعَ مِن طَرْفَة عَيْن.. وعَدَدُهم ثَمانية آلاف وسَبعمِائة.. فأَخرَج لهم المديرات على حَسَبِهم، ومَشَى أَلْفَ خُطْوة[1]، وأمَرَهم بِحُفْرة، وحَفَرُوها، وأخْرَجُوا تُرابَها، ثم حَفَرُوها حَتّى نَزَل إلى نَحو ثلاثَ قامات[2]، ثم أمَرَ بالرِّمال والأحْجار حَتّى امْتَلأَت الحُفرة[3]، ثم أمَرَ بِجَذْوات الحَطَب، فجَمَعوها فَوْقَها، ثم أَتَى بِقَلباتِ بُلَنْغَه وَوَضَعَها فَوق ذَلِك كُلِّه، ثُمّ رَمى عَليها النّار، ووَقَد واشْتَعَل فَذابَ ذلِك البُلَنْغات عَلى الأحْجارِ والرِّمالِ وكَسَرَهُمْ[4]، ومَلَسَت الحُفرةُ وصارَتْ كالفخار، ثم أمَرَ بِالمِياه اللَّواتي في قِرَبِهم وزقّهم، وحَلُّوا أفْواه القِرَب والزّقوق، فانْصَبَّت وسالَتْ إلى الحُفْرة حتّى امْتلأتْ وعَلَتْ وسَمَتْ، بِحَيثُ يَضْطَرِب فيها الأمواج، وتَلاطَمَ كالبَحر العظيم. ورَجَع إلى كَنْكُ موسى، فَوَجدَهُما جالِسَيْن، وقد أيْقَظَهُما وَهْجُ تِلكَ النّارِ ودُخانُه، فَحَيّاه حَياة، ثُمّ قال: أيّها السَّيّد! فقَدْ أعانَكَ اللهُ وأذْهَبَ هَمَّكَ، وَأَيْنَ إنار؟ فَلْتَأْتِ! فقَدْ أقْدَرَكَ اللهُ عَلى إيجادِ البَحرِ بِبَرَكَةِ مَنْ تَزُورُه: رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَها هِيَ! وَوافَقَ ذَلك بِطُلُوع الفَجر الأَعْلى مِن تِلكَ اللَّيلة.

"فَقامَتْ نِسوةٌ مَعَها، وهُنَّ خَمْسمِائة، ورَكِبَتْ عَلى بَغْلَتها إلى البَحر، فَنَزَلْنَ

ألف كيلومتر، ومن منطقة توات إلى البحر من جميع الجهات أكثر من ذلك. والله أعلم.

[1] ألف خطوة حوالي تسعمائة متر. حسب تقدير "معجم لغة الفقهاء".

[2] حوالي خمسة أمتار.

[3] بعد ملء الحفرة بالأحجار والرمال لا يبقى مكان كبير للماء، وهذا يقلل مِن هَول ما قد يُفهم مِن الحكاية.

[4] يحتمل أن يكون المعنى: أن النار المشتعلة أذابت نوى البلنغة وكسرتها؛ فتشكلت منها أرضية تحفظ الماء على سطحها. فلينظر!

فِيها فَرِحاتٍ مُوَلْوِلاتٍ مَسْرُوراتٍ، وَغَسَلْنَ، ثُمَّ رَحَلُوا وغَرَفَ بَعضُهم مِن ماءِ الحُفرة"[1].

بناء مساجد كثيرة في طريق الحج

عظمة منسا موسى وعمله للإسلام والمسلمين، لم ينقطع حتى وهو في رحلة شاقة ذات مخاطر، ومفتوحة على مجاهل، مثل رحلة الحج عبر الصحارى والأراضي المجهولة المملوكة لسلاطين آخرين؛ فقد بنى مساجد كثيرة في طريق الحج من مالي إلى مصر؛ فكان يبني مسجدا في كل يوم جمعة أدركه في الطريق. والآلاف الذين معه مِن الخدم؛ يسهُل عليهم بناء مسجد يسعهم لصلاة الجمعة.

وهذا دليل على ما ذكر عنه من التدين والحرص على العبادة؛ فلا يريد أن تفوته جمعة ولو في سفر؛ وهو إحسانٌ إلى أهالي البلدات التي يبني بها تلك

[1] تاريخ الفتاش ص34-35. وهذا شرح بعض الغريب في النص: "المديرات" لم أقف على ضبط هذه الكلمة واشتقاقها، ويحتمل "مديات" جمع مدية، قال في تاج العروس مع القاموس: والمدية، مثلثة: الشفرة.. جمع مدى، بالكسر والضم، وقال الجوهري: الجمع مديات ومدى. والمدية، بالضم: كبد القوس. اهـ فليحقق. "جذوات الحطب"، في تاج العروس: "الجذوة، مثلثة: القبسة من النار، وقال الراغب: هو الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب. اهـ والثاني هو المناسب هنا، أي فحم الحطب، لقوله بعد ذلك: ثم رمى عليها النار، ولو كانت بمعنى القبسة من النار، لم تكن ثمة حاجة إلى النار. بُلَنْغَه [BULANGA] كلمة بلسان سغي، وهي ثمرة معروفة في بلاد السودان، يُتخذ منها زيت ذو استخدامات كثيرة، وهو زيت مبارك ذو نفع كثير ويستشفى به. إذا استوت الثمرة كان عليها جلد رقيق أخضر فاتح، ثم لحم أبيض يُتَفَكَّه به، ثم قلبها نواة حمراء قانية ملساء، تشكل أكثر من تسعة أعشار حجم الثمرة، يُعمل منها زيت يَتجمَّد مثل الزبدة، ويصنع على شكل كريات، والحبة المستوية تأتي على قدر حبة الليمون. والظاهر من الحكاية أنهم كانوا يسافرون بقلبات الثمرة – أي نواها – غير المصنوعة. الفخار: أواني ونحوها تصنع من الطين وتحرق، (المعجم الوسيط)، وأفاد المحقق أن في النسخ كلها: "كالخفار". الزِّق: السقاء ينقل فيه الماء، أو جلد يُجَزّ شَعرُه ولا ينتف، يجمع على أزقاق وزقاق وزقان، ولم أجد جمعها على زقوق كما هنا.

المساجد، أو للذين يكونون قريبين منها، وهو سبيل لنشر الإسلام وتثبيت دعائمه في تلك الأراضي.

ومن المساجد التي بناها في طريق الحج مسجد غاو، ومسجدان في كُنْدَمْ ودِيرى[1]. وبنى الجامع الكبير في تنبكت في طريق العودة من الحج.

شجاعة أحد حواشيه

انفرد بنقلها تاريخ الفتاش؛ فَلْنَتْرُكْ له سردها، وهي أيضا بأسلوبه الفريد: "ومَشى مَعَه سِلمَان بن يَعْتَ، وكان مِن خَدَمِه، يَرْكَب أمامَ الرُّفْقة. وَوَرَد في جَمّ كثير؛ ووَرَدوا يَوماً على بئر في قِفار صَحارِيهم عَطاشى ظامِئين، وأدْلَوا دَلْوَهم في ذلك البِئر، ونَزَل عَلى الماء، فَقُطِع حَبْلُه هُنالِك، ثُمّ أُخرى فَقُطِع، ثُمّ أُخرى فَقُطِع؛ فَظَنُّوا أنّ هُنالِك مَنْ يَقْطَعُها، وَهُمْ في غاية الظَّمَأ، واجْتَمَعوا كُلُّهُم عَلى جُرْفِها لا يَدْرُون ما يَفْعَلون. وشَمَّرَ سِلمان بن يَعْت على ساعِدِه وتَأَبَّط سِكّينَه ورَمَى بِنَفسه إلى داخِل البِئر، وتَرَك القَوْمَ على البِئر واقِفِين في كَرْب عَظِيم. وإذا هُوَ بِرَجُلٍ هُنالِك، لِصّ مُحارِب سَبَقَهم على البِئر؛ مُرادُه يَمْنَعُهم الماءَ حَتَّى يَمُوتُوا عَطْشاناً كُلُّهُم، فَيَخْرُج وَيَجْمَع جَميع أمْوالهم لِنَفْسِه، ولا يَظُنُّ أنّ أحَداً يَقْدِر أنْ يَنْزِل عَلَيهِ هُنالِك. فَقَتَلَه سِلمَان بن يَعْت هُنالِك، ثُمّ حَرَّكَ لَهُم حَبْلَ الدَّلْو،

---

[1] انظر: تاريخ الفتاش ص34، وتاريخ السودان للسعدي ص56. أما كندم [GUNDAM]: فأفاد المحقق بأن على كافها ثلاث نقاط، وهي طريق في كتابة الكاف الفارسية بالحرف العربي. وهي بلدة في جنوب غرب تنبكتُ على أحد روافد نهر النيجر قُبَيل ما ينحني إلى جهة الشرق، وتقع الآن في شمال غرب جمهورية مالي، ينظر خريطة جمهورية مالي. وأما ديري [DIRE]: فأثبت المحقق من نسخ المخطوط بدلها "دُكُرَيْ"، وما أثبتناه سببه وجود بلدة معروفة إلى اليوم بالاسم الذي أثبتنا، والاسمان (ديري ودكري) موجودان في الكتاب في غير ما موضع. وديري بلدة في منطقة تنبكتُ في شمال غرب جمهورية مالي، في دلتا نهر النيجر، وتقع على النهر، تبعد عن تنبكتُ بنحو 80 كيلو، وهي في شرق بلدة كندم السابقة. انظر [DIRE] في موسوعة وكيبيديا، وخريطة جمهورية مالي.

وَجَرُّوه، فَإذا هُم بِجنازةِ رَجُلٍ قَتَلَه، وَجَرُّوه وَرَمَوْا بِه إلى البِئر مَيتاً"[1].

لقاؤه أحد رجال الحكم

لقي منسا موسى في طريق ذهابه إلى الحج "هِلالُ القَطَلُوني"، أحد رجال الحكم في تلمسان في عهد بني عبد الواد مِن بربر زناتة الذين حكموا المغرب الأوسط من عاصمتهم في تلمسان، قبل أن يستولي عليها أبو الحسن المريني ويقتل سلطانها أبا تاشفين. وكان هلال من موالي بني عبد الواد من سبي قَطَلونيا[2]، ولم يزل يقوى أمره حتى استولى على سلطان تلمسان أبي تاشفين، وجمع حقيقة الحكم بيده، ثم خاف مَغَبّةَ ذلك؛ فانطلق إلى الحج في سفينة من تلمسان حتى نزل بالإسكندرية سنة 724، وهي سنة حجة منسا موسى، فالتقى في طريقه بعد الإسكندرية بجموع حج منسا، واستحكمت بينهما المودة[3].

نزوله في مصر في طريق الحجاز، الوصول إلى القاهرة

اختار منسا موسى أن يتوجه إلى مصر في طريقه إلى الحج[4]، ولم تختلف المصادر في سنة وصوله إلى الديار المصرية؛ وأنها سنة 724، وكل المصادر التي حددت شهر وصوله لم تختلف في أنه وصل في شهر رجب.

لكن اختلفت في يوم الوصول من الشهر، وفيه ثلاث روايات:

أولاها للصفدي: أول شهر رجب[5].

---

[1] تاريخ الفتاش ص36.

[2] قطلونيا [Cataluña] منطقة تقع اليوم في شمال شرق اسبانيا، عاصمتها برشلونة، (معجم روبرت).

[3] انظر: تاريخ ابن خلدون 152/7.

[4] قال ابن إياس في بدائع الزهور 138/1 حوادث سنة 724: "وَسَبَب تَوَجُّهِه إلى مصر أنَّه قَصَد الحَجّ في تِلك السَّنة".

[5] انظر: أعيان العصر 477/5.

والثانية لابن كثير: الخامس والعشرون منه[1].

والثالثة للمقريزي: الثاني والعشرون أو الثالث والعشرون أو الرابع والعشرون منه؛ لأنه ذكر أن منسا موسى قضى ثلاثة أيام في دار ضيافةٍ في بَرِّ الجيزة حيث الأهرام التي خرج عليها أولَ وصوله، ثم عدَّى النيل إلى بَرِّ مصر والقاهرة في الناحية الشرقية؛ حيث قلعة الجبل ودار السلطان ومقر حكمه، وحدّد تاريخ عبور النيل، وهو السادس والعشرون من رجب[2]؛ فإذا لم يكن المقريزي عدّ يَوْمَيْ الوصول والعبور في أيام الضيافة، يكون وصوله إلى الديار المصرية في الثاني والعشرين، وإن كان عدّهما كان وصوله في الرابع والعشرين، وإن كان عدّ أحدهما دون الآخر كان وصوله في الثالث والعشرين.

وليس بين ابن كثير والمقريزي إلا فارق يوم في أحد الاحتمالات، وذلك قريب.

منزله في مصر ومدة مكثه

تقدَّم أن منسا موسى سلك في حجته طريق الصحراء؛ فكان وصوله إلى الديار المصرية من الغرب، فنزل أولَ ما وصل، غربيَّ نهر النيل حيث الأهرامات، وقضى ثمة ثلاثة أيام في دار الضيافة السلطانية.

عدّى النيل إلى الجانب الشرقي بعد الثلاثة أيام في دار الضيافة، ونزل في القرافة الكبرى عند بِركة تسمى بِرْكة الحَبَش أو بِرْكة الحاجّ[3]، في قصر أقطعه إياه

---

[1] انظر: البداية والنهاية: 238/18.

[2] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك 73/3.

[3] أما القرافة الكبرى فكانت بها مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت البلاد المصرية واختُطَّتْ مدينة الفسطاط في عهد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكانت بها مساكن كذلك. ووصف القلقشندي المحلة فقال في صبح الأعشى 429/3: "(..) القَرافة الَّتي هي مَدفن أمواتها، وهي تُربة عظيمة مُمْتَدّة ←

السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، ولم يُنْزِله السلطان في دار الضيافة التي في الجانب الشرقي من النيل[1]. فلقي أبا الحسن ابن أمير حاجب، واليَ مصر والقرافة من قبل السلطان؛ فتوطدت علاقته بمنسا موسى، وقويت الصحبة بينهما، وسأله الأمير المملوكي عن أمور كثيرة من أخباره[2].

لقاؤه السلطان المملوكي

كان للمراسم السلطانية في مصر، رغبةٌ مُلِحّة في حضور منسا موسى إلى قَلْعة الجَبَل[3] ولقاء السلطان محمد بن قلاوون الملقب بالملك الناصر؛ فأرسلت

في سَفْح [جبل] المُقَطَّم، مَوْقِعها بَيْن المُقَطَّم والفُسْطاط وبعض القاهِرة، تَمْتَدّ من قَلْعة الجَبَل المُتَقَدِّم ذكرها، آخِذة في جِهة الجنوب إلى بِرْكة الحَبَش وما حَولَها". وذكر المقريزي (ت845) في كتابه "المواعظ والاعتبار" 330/3: أنه أَدْرَكَ القرافةَ الكبرى عامرةً بِسُكْنى السودان التَّكارِرة. وفي إنباء الغمر 438/3؛ في حوادث سنة 833 ذكر ابن حجر وباءً حدث في مصر، قال: "وَوَقَع المَوتُ في السُّودان بِالقَرافة إلى أنْ ماتَ مِنْهُم نَحْوُ ثَلاثةِ آلاف". ومثله في السلوك للمقريزي، حوادث شهر جمادى الآخرة، سنة 833. وأما بِركة الحبش فقال ياقوت في معجم البلدان 285/1: "بِرِكَة الحَبَشِ: هي أرضٌ في وَهدَة مِن الأرض واسِعة، طُولُها نَحو مِيل، مُشْرِفة على نِيل مصر خَلف القَرَافة.. تُزرَعُ فَتَكُون نزهةً خَضِرة.. وهي مِن أجَلّ مُنْتَزَهات مصر". وانظر: الإصابة في معرفة الصحابة 453/2.

[1] يؤخذ من مواضع من كتاب السلوك أن في الجانب الشرقي من النيل، حيث مصر والقاهرة وقلعة الجبل؛ دارا أخرى للضيافة تحت قلعة الجبل قريبة منها.

[2] انظر: مسالك الأبصار 118/4، وتاريخ ابن الوردي 266/2، وأعيان العصر 477/5، والبداية والنهاية 240/18–242، وتاريخ ابن خلدون 495/5–496، والسلوك لمعرفة دول الملوك 73/3.

[3] قَلعة الجبل أو القلعة؛ كانت مقر السلطان محمد بن قلاوون، وبها وُلِد، بناها بهاء الدين قراقوش الطواشي سنة 577، في زمن صلاح الدين الأيوبي. ويقع في الجانب الشرقي من النيل حيث جبل المُقَطَّم والفسطاط والقرافة. أوّل من اتخذها سكنا للسلاطين محمد بن أبي بكر الأيوبي، وذلك سنة 604. ومن مجموع ما ذُكر حول لقاء منسا موسى بالناصر بن قلاوون، وما ذُكر في وصف قلعة الجبل، قصر الحكم المملوكي، وأجزائه وأبوابه؛ يغلب على ظننا أن اللقاء كان في الإيوان الكبير الذي كان يجلس فيه السلطان في أيام المواكب للخدمة العامة، وهو مما أضافه محمد بن قلاوون على القصر، وأن دخوله ←

لذلك المَهْمَنْدار، وهو المسئول عن تلقّي الوفود.

طلب المَهْمَنْدار من منسا موسى الطلوع إلى القلعة والاجتماع بالسلطان، فأظهر منسا موسى الإباء، وامتنع من قبول ذلك، مُعلّلا أنه لا يريد أن يخلط حجَّه بغيره، وأن قصده في رحلته خالصٌ للحج لا للسياسة والعلاقات بين الملوك والسلاطين. والواقع أن منسا موسى كان على علم بما يجري في مجلس سلاطين مصر، من كون المراسم السلطانية تطلب مِمَّن يدخل على السلطان تقبيلَ الأرض بين يديه، وهو هيئة سجود واضحة. وهو مرسوم لم يكن منسا موسى على استعداد للانصياع له؛ لأنه يراه إهانة لشخصه وتنقيصا لرئاسته ومُلكه، ومعصية لربه وخالقه. لكن المراسم السلطانية ألحَّت على المهمندار أن يحضر منسا موسى، فما زال يراوده حتى طلع منسا موسى على القلعة ليلتقي بسلطان مصر.

صعد منسا موسى مع المهمندار إلى قلعة الجبل حيث مجلس السلطان محمد بن قلاوون، في عدد قليل من قومه، وذلك في يوم من أيام الخدمة[1] التي يجلس فيها السلطان في القصر، ويحضر فيها جميع موظفي القصر، كلٌّ في الخدمة الخاصة به. فلما دخل منسا موسى مجلس السلطان محمد بن قلاوون، طَلَبت منه

كان من الباب الذي من جهة القرافة حيث كان القصر الذي نزل فيه، وهو أعزّ الأبواب استطراقا وأقلها سالكا. انظر في وصف قلعة الجبل: صبح الأعشى 421/3، وانظر تاريخ بناء قلعة الجبل في النجوم الزاهرة 81/6، وذكر ترجمة السلطان محمد بن قلاوون وسلطنته فيه: 35/8 فما بعدها.

[1] ذكر المقريزي في "الذهب المسبوك" أن اللقاء كان في "يوم الخدمة". ويؤخذ من مواضع وروده في كتاب "النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة" لابن تغري بردي؛ أن "يوم الخدمة" هو يوم الدوام الرسمي في تعبير عصرنا، أي يوم العمل. وكان للأمراء أيام معينة يصعدون فيها إلى القلعة للخدمة السلطانية، كلٌ في وظيفته. ويؤخذ أيضا من الكتاب المذكور أن أيام الخدمة في الأسبوع تَقِلُّ وتَكْثُر؛ بحسب السلاطين وبحسب الأمراء وطبيعة عملهم، وأن مواضعها تختلف كذلك؛ في القلاع والقصور والأحواش والدور السلطانية...

المراسم السلطانية أن يقبّل الأرض؛ تحيةً للسلطان.

ثم إن مصادرنا تختلف في موقف منسا موسى من هذا الطلب: هل نفَّذه أم لا؟ وفي موقف المراسم السلطانية منه بعد ذلك: هل أتاحت له الجلوس في حضرة السلطان أم لا؟

أما تقبيل منسا موسى الأرض في حضرة السلطان محمد بن قلاوون ففيه روايتان: أولاهما: أنه قبَّل الأرض بعد أن أظهر الإباء. وهي لابن فضل الله العُمَري وابن الوردي والصَّفَدي والقلقشندي[1]. وأقدَمُهم ابن فضل الله، وهو أقوى سندا وأفْصَل حكاية، قال في حكاية مباشرة عن المهمندار: "وحاوَلْتُه أنْ يَطْلَع لِلْقَلْعَة ويَجْتَمِع بِالسُّلطان، فَأبَى عَلَيَّ وامْتَنَع، وقال: أنا جِئْتُ لِأَحُجَّ لا لِشَيءٍ آخَر، وَما أُرِيدُ أَخْلِط حَجِّي بِغَيْرِه، وَشَرَع في الاحْتِجاج بِهَذا، وأَنا أَفْهَمُ أنَّه يَرَى الحُضُورَ نَقْصاً عَلَيْهِ؛ لِما يُضْطَرُّ إِلَيْهِ مِنْ تَقْبِيلِ الأرْضِ أو اليَد. وبَقِيتُ أُحاوِلُه وَهو يَتَعَلَّل ويَعْتَذِر، والمَراسِمُ السُّلْطانِيّة تَتَقاضانِي فِي إحْضاره، فَما زِلْتُ بِه حَتّى وافَق. فَلمّا حَضَر إلى حَضْرةِ السُّلْطان قُلْنا لَه: قَبِّل الأرْض، فَتَوَقَّفَ وأَبَى إباءً ظاهِراً وَقال: كَيْفَ يَجُوزُ هذا؟! فَأَسَرّ إلَيْهِ رَجُلٌ عاقِلٌ كانَ مَعَه كَلاماً لا نَعْلَمُه، فَقال: أنا أَسْجُدُ لله الّذِي خَلَقَنِي وَفَطَرنِي، ثُمّ سَجَد"[2].

وما أسَرَّ إليه الرجل الذي كان معه حيلةٌ دبلوماسية لإنقاذ الموقف، ولم تكن في صالح منسا موسى؛ لأن السجود لله في موضع يُسجد فيه للسلطان، وبَعد طلب مراسمه؛ أمرٌ يؤدي ظاهرا إلى ما خَشِيَه منسا موسى من النقص والهوان له،

---

[1] انظر: مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري 122/4، وتاريخ ابن الوردي 266/2، وأعيان العصر للصفدي 477/5، وصبح الأعشى للقلقشندي 283/5. وانظر: كنز الدرر وجامع الغرر/ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر 316/9.

[2] مسالك الأبصار، مرجع سابق.

وإلى الظن أن السجود للسلطان.

الرواية الثانية: أن منسا موسى رفض تقبيل الأرض ولم يسجد، وهذه لابن كثير والمقريزي – في مُؤَلَّفَيْه – وابن حجر العسقلاني والشوكاني[1]، والمقريزي أكثرهم تفصيلا في الحكاية، قال:

"فأَرْسَل السُّلطان المَلِكُ النّاصِر محمَّد بن قلاوون المَهْمَنْدارَ لِتَلَقِّيه. ورَكِب به إلى القَلْعَة في يَومِ الخِدْمة، فامْتَنَع أنْ يُقَبِّلَ الأرض وقال لِلتُّرْجُمان: أنا مالِكِيّ المَذْهَب[2]، وَلا أَسْجُدُ لِغَيْرِ الله، فأعْفاه السّلطان مِن ذلك".

ويمكن الجمع بأن نفي السجود وتقبيل الأرض، مبنيٌّ على أن منسا موسى سجَدَ لله وأبى أن يسجد للسلطان، وإثبات السجود وتقبيل الأرض مبنيٌّ على أن السجود وإن كان نية منسا موسى فيه أنه لله؛ فإنه يفهم من كونه في حضرة السلطان وفي مجلسه، أنه كان داخلا في العادات والتقاليد والمراسم المتبعة.

وفي مصادرنا موقف ثالث، وهو عدم ذكر حادثة طلب التقبيل لا بنفي ولا بإثبات، وهذا موقف الذهبي واليافعي وابن خلدون[3].

---

[1] انظر: البداية والنهاية لابن كثير 240/18-242، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي 73/3، والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزي أيضا ص141، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 383/4-384، والبدر الطالع للشوكاني 314/2. ويحتمل ما في البداية والنهاية وجها آخر، وأن يُقْرَأ: "فأكرَهَه السلطان" بدل "فأكرمه السلطان"، ويدل عليه قوله في عدم تمكينه من الجلوس "أيضا"، وعلى هذا الاحتمال يكون ابن كثير من أصحاب الرواية الأولى، والله أعلم.

[2] يُنظر في وجه تعليل منسا موسى رفضَه تقبيل الأرض؛ بكونه مالكيا! هل السُّلطان رأى أن قبول المماليك سجود رعاياهم لهم وتعويدَهم رعيتَهم عليه؛ مبنيٌ على مذهبهم المخالف للمذهب المالكي؟ وفيه اعتزاز منسا موسى بمذهبه المالكي، وتمسكه به.

[3] انظر: العبر للذهبي 69/4-72، ومرآة الجنان لليافعي 204/4-206، وتاريخ ابن خلدون 495/5-496.

ولم يظهر لنا أن إهمال ذكره أمرٌ مقصود من الذهبي؛ لكون كتابه "العبر" مختصرا، ولا من اليافعي؛ لنقله عن الذهبي بقريب من ألفاظه.

وإنما الغرابة من ابن خلدون؛ لسعة اطلاعه على التاريخ والحوادث، وكثرة تفصيله في أخبار منسا موسى وبلاده، وتطرقه طويلا إلى حَجَّته، واستيطانه هو مصر أكثر من عشرين سنة إلى وفاته في القاهرة؛ فغريب أن يكتفي مثله في ذكره لقاء منسا موسى بالناصر بن قلاوون بقوله: "وَلَقِيَهُ السُّلْطانُ بِمَجْلِسِهِ وَحَدَّثَهُ"[1].

ولعلَّ عذرَه ما يَغْلِب على ظَنّنا أنه لم يَطَّلع على كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، وهو أقدم وأفْصَل مصادرنا في نقل حكاية تقبيل الأرض. وإنما نقل عن ابن فضل الله في كتابٍ له لم يُعيّنه، في مواضع من تاريخه كلها في أخبار جنكيزخان سلطان المغول[2]. هذا مع ذكره في مقدمة تاريخه[3] عدمَ اطلاعه على أحوال المشرق، وقلة الأخبار التي نقلها في أحوالها. فمن أراد أن يعذر ابن خلدون أمكنه تصنيف حادثة طلب تقبيل الأرض في أخبار المشرق التي لم يطلع عليها ابن خلدون. والله أعلم[4].

وثمة حدث آخر اختلفت فيه المصادر: وهو جلوس منسا موسى بحضرة السلطان في قصر الحكم بقلعة الجبل، حين دخل عليه. وهذا الحدث له ارتباطٌ ما بحدَث تقبيل الأرض؛ فإما أن يكون عدم تمكينه من الجلوس رَدّةَ فعلٍ من

---

[1] تاريخ ابن خلدون 5/495-496.

[2] انظر: تاريخ ابن خلدون 5/593 فما بعد (التعريف بجنكيزخان وقسمة الأعمال بين ولده وانفراده بالكرسي..).

[3] 1/32.

[4] وفي كتاب "الإسلام والمجتمع السوداني" لأحمد شكري ص49 أن ابن خلدون "تجاهلها عمدا حتّى لا يحرج نفسه أمام المماليك أولياء نعمته"، قال: "ولعلّ في هذا التجاهل شهادة ضمنيه تزكي رواية العمري".

المراسم السلطانية على امتناع منسا موسى من تقبيل الأرض؛ فلم يمكَّن هو مِن الجلوس، وإما أن يكون التمكين من الجلوس من الحفاوة به والتكريم. أو يكون عدم الجلوس ردّة فعل من منسا في إهانة المراسم إياه بطلب تقبيل الأرض، فلم يشأ أن يجلس؛ إباء وأنفة.

وانفرد ابن فضل الله بنقل جلوس منسا موسى في حضرة السلطان، قال: "وتقدّم [منسا موسى] إلى السُّلطان، فَقام لَهُ بَعْضَ قِيام، وأَكْرَمَه وأجْلَسَه إلى جانِبِه، وتَحادَثا حَدِيثاً طَوِيلا"[1]. أما غيره فلم يذكر جلوسه في مجلس السلطان، إما أنه لم يتطرق إلى ذلك بإثبات ولا نفي[2]، وإما أنه نص على أن منسا موسى لم يجلس[3] أو لم يُمَكَّن من الجلوس[4]. والفرق أن التعبير بعدم تمكينه من الجلوس يدل بوضوح على أنه كان مقصودا من المراسم السلطانية، والتعبير بعدم جلوسه يحتمل أنه إباءٌ وأنَفَة من منسا موسى.

وأسوأ ما في نقل هذين الحدثين (تقبيل الأرض والجلوس)، ما ذكره ابن الوردي والصَّفَدي، قال ابن الوردي: "وحَضَر بَيْنَ يَدَي السُّلطان لِتَقْبِيلِ يَدِهِ؛ فَأُمِرَ بِتَقْبِيلِ الأرْض، فامْتَنَع، فَأُكْرِهَ عَلى ذَلِكَ وَلَمْ يُمَكَّنْ مِن الجُلوس"[5]، وقال الصَّفَدي: "واستَأْذَنَ فِي الصُّعُود إلى القَلْعَة؛ لِتَقْبِيل يَدِ السُّلْطان؛ فأُذِنَ لَه، فَطَلَع فِي طائفةٍ يَسِيرة، ولَمّا وَصَل أُمِرَ بِتَقْبِيل الأَرض، فامْتَنَع، فَأُلْزِمَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلى كُرْه، وَلَمْ يُمَكَّن مِن الجُلوس". ففي حكايتهما أمور:

أحدها أن منسا موسى طلع إلى قصر السلطان وهو يقصد تقبيل يد

---

[1] مسالك الأبصار 122/4، ونقله عنه بألفاظه القلقشندي في صبح الأعشى 283/5.

[2] وَهُم ابن خلدون، والمقريزي في "الذهب المسبوك" دون "السلوك"، وابن حجر، والشوكاني.

[3] وهما الذهبي واليافعي الناقل عنه بلفظه.

[4] وَهُمْ ابن الوردي، والصفدي، واليافعي، وابن كثير، والمقريزي في "السلوك" دون "الذهب المسبوك".

[5] تاريخ ابن الوردي 266/2.

السلطان؛ وذلك بطلب واستئذان من منسا موسى نفسه، فلم يصعد حتى أذِنَتْ له بذلك المراسم. وهذا مخالف لرواية ابن فضل الله العمري عن المهمندار بأنه راوده ليَطْلَع، فأظهر الرفض، فلم يزل به حتى قبل، بعد إلحاح من المراسم السلطانية.

والثاني: أنه أُمر بعد طلوعه بما هو أكبر من تقبيل اليد الذي أراد، وهو تقبيل الأرض على هيئة الساجد في حضرة السلطان المملوكي.

الثالث: أنه لما امتنع من تقبيل الأرض أُكْرِهَ عليه وأُلْزِم به، فلم يجد منسا موسى بُدّا من تقبيل الأرض؛ فانصاع للإلزام وهو كارهٌ غيرُ راض.

الرابع: أن المراسم السلطانية أبْعَدت في سوء معاملته وإهانته؛ فلم تُمَكِّنه من الجلوس في حضرة السلطان.

هذا وبعد ثمان وعشرين سنة من هذا الحدث، حج أحد ملوك بلاد مالى، فلما وصل مصر، طَلَب من المراسم السلطانية إعفاءه من الدخول على السلطان، فنزلت المراسم على طلبه وأعفته من الدخول[1]؛ فلم يحصل له مثل المحنة التي حدثت لمنسا موسى مع السلطان محمد بن قلاوون.

تقبيل الأرض عند السلاطين

كان تقبيل الأرض بين يدي سلطان مصر في ذلك العصر، من المراسم السلطانية في التحية والبيعة، وهو عادة قديمة سابقة على العهد المملوكي، بل على بزوغ شمس الإسلام، ثم أصبح شائعا عامّا ومفروضا في تحية سلاطين العصر المملوكي، وهو العصر الذي حجّ فيه منسا موسى، ومرّ في الربع الأول من القرن الثامن بمصر، حيث كان أشهر وأقوى سلاطين المماليك الأتراك؛ الملك الناصر

---

[1] نقله المقريزي في السلوك 149/4 في حوادث سنة 752.

محمد بن الملك المنصور بن قلاوون.

في كتاب "رسوم دار الخلافة" للصابئ (ت448)، لمّا أتى المؤلف على ذِكر ما يَجِب على مَن يدخل على الخليفة، قال: "إذا دَخَل الدّاخِل إلى حَضْرة الخَلِيفة؛ مِنْ أَمِيرٍ أو وَزِيرٍ أو ذِي قَدْرٍ كَبير؛ فَلم يَكُن مِن العادة القَديمة أن يُقَبّل الأرض، لَكِنّه إذا دَخَل ورأى الخَليفةَ قال: السَّلامُ عَلَيْكَ أَمِيرَ المُؤمِنين ورَحْمةُ اللهِ وَبَرَكاتُه.. ورُبَّما تَقَدَّمَ الوَزِيرُ أو الأَمِيرُ، فَأَعْطاهُ الخَلِيفةُ يَدَهُ مُغشاةً بِكُمّهِ؛ إكْراماً لَه بِتَقْبِيلها، واخْتِصاصاً بِهذِه الحالِ.. وقَد عُدِلَ عَنْ ذاكَ إلى تَقْبِيل الأرْض، واشْتَرَكَ اليَومَ فِيه كُلُّ النّاسِ. فأمّا وُلاةُ العُهُود مِن أولاد الخُلَفاء، والأَهْلُ مِن بَنِي هاشِم، والقُضاةُ والفُقَهاء والزُّهّاد والقُرّاء؛ فَما كانُوا يُقَبّلُون يَداً ولا أَرْضا، لَكِنَّهُم يَقْتَصِرُون على السَّلام..، وقَد اخْتَلَطُوا الآنَ بِالطّائِفة الّتي تُقَبّل الأرض، إلاّ الأَقَلّ مِمَّن أقامَ عَلى التَّوَرُّع مِن هَذا الفِعل. وأمّا أوْساط الجُنْد وَمَنْ دُونَهم وَعَوامّ الناس وَمَنْ لاَ رُتْبَةَ لَه مِنْهم؛ فَمُنْكَرٌ مِنْهُم تَقْبِيلُ الأَرْض؛ لأنّ مَنْزِلَتَهُم تَقْصُر عَن ذاك"[1].

وقال ابن خلدون (ت807) في بيان تطور أنواع البيعة: "وأمّا البَيْعة المَشْهُورة لِهذا العَهْد فَهِيَ تَحِيّة المُلوك الكِسْرَوِيّة: مِنْ تَقْبِيل الأرض أو اليَد أو الرِّجل أو الذَّيْل.. وغَلَب فِيه حَتَّى صارَتْ حَقيقةً عُرْفِيّة، واسْتُغْنِيَ بِها عَن مُصافَحة أَيْدي النّاس الّتي هِي الحَقيقة في الأصل؛ لِما في المُصافَحة لِكُلّ أَحَدٍ مِن التَّنَزُّلِ والاِبْتِذالِ المُنافِيَيْنِ لِلرّياسة، وَصَوْنِ المَنْصِب الملوكِيّ، إلاّ في الأَقَلّ مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّواضُع مِن المُلوك، فَيَأْخُذ بِه نَفْسَه مَعَ خَواصِّه وَمَشاهِير أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَتِه"[2].

وقال القلقشندي: "والأصل في ذلك أنّ تَحِيّة المُلوك والرُّؤساء والأكابِر في

[1] رسوم دار الخلافة ص31.

[2] مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من تاريخه ص261.

الأمِم الخالية كانت بالسُّجود.. فلَمّا وَرَدَت شَريعة الإسلام بِنَسْخ التَّحِيّة بِالسُّجود، وغَلَب مُلوك العَجَم على الأقطار؛ اسْتَصْحَبُوا ما كان عَلَيه الأمر في الأُمَم الخالِية، وعَبَّروا عنه بِتَقْبيل الأرض؛ فِرارا مِن اسْمِ السُّجود، وَلِوُرود الشَّريعة بِالنَّهْي عَنه، واسْتَمَرَّ ذَلك تَحِيَّةَ المُلوكِ إلى الآن"[1].

فتقبيل الأرض مرسومٌ سلطاني دخل على المسلمين من عادات الأكاسرة وملوك الفرس في تحية رعيتهم لهم، ولكثير من الأمم طريقة خاصة في تحية ملوكهم[2].

أما متى بدأ ذلك في المسلمين؟ فنقل ابن تيمية في مجموع الفتاوى[3] أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ وَكَّلَ أعواناً يَمْنَعون الداخل عليه مِن تقبيل الأرض، ويُؤَدِّبُونَهم إذا فعلوا. وفي وفيات الأعيان أن السلطان الملقب بالحاكم بأمر الله، نَهَى الرعية عن تقبيل الأرض له، سنةَ ثمان وأربعمائة (408)، وجعل عوض ذلك أن يقولوا: السلام على أمير المؤمنين[4]. وأرَّخ ابن تغري بردي ترسيم تحية سلطان مصر بتقبيل الأرض؛ مِن أيام السلطان مَعَد، الملقب بالمُعِزّ بالله، أول الخلفاء العُبَيْدِيِّين بمصر (362–365)[5]، وأن السلطان المملوكي

---

[1] صبح الأعشى 326/6.

[2] انظر: إعانة الطالبين 197/1، وفيه أيضا: فمَلِك العرب كانت رَعِيَّتُه تُحَيِّيه بأَنْعِمْ صباحاً؛ قبل الإسلام، وبعده بالسلام عليكم... وملك الحبشة كانت رعيته تُحَيِّيه بوضع اليدين على الصَّدر مع السكينة. وملك الروم كانت رعيته تُحَيِّيه بكشف الرأس وتَنْكِيسه. وملك النوبة كانت رعيته تُحَيِّيه بجعل اليدين على الوجه. وملك حِمير كانت رعيته تحييه بالإيماء بالدعاء بالأصابع. وملك اليمامة كانت رعيته تحييه بوضع اليد على كتفه. وسبق ص: 72 تحية أهل بلاد مالى سلاطينهم.

[3] انظره 93/27.

[4] انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 292/5، في ترجمة المنصور، أبي علي الملقب بالحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز، صاحب مصر، تولّى سنة 383.

[5] أبو تميم، معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله الفاطمي المغربي، ←

بَرسباي[1] الملقب بالملك الأشرف (ت841) أبطله بعد ذلك إبطالا مطلقا ومنع كافة الناس مِنه، واستعاض عنه بتقبيل يد السلطان. ثم رجع إلى تقبيل الأرض بصورة أقل هبوطا، على هيئة الراكع[2].

فلتقبيل الأرض هيئتان: في الأولى يقوم المقبِّل على قدميه، ثم يخرّ إلى الأرض حتى يكون على هيئة الساجد في الصلاة. وفي الصورة الثانية يَنْحني المقبّل ويضع أطراف أصابع يده على الأرض على هيئة الراكع في الصلاة، ثم يقوم ولا يقبل الأرض بفمه[3].

وكان تقبيل الأرض في العهد المملوكي مفروضا على جميع الرعايا من الأعيان والعامة: الأمراء والنواب والوزراء والسفراء والكتّاب، ولا يُسْتَثْنَى منه إلا القضاة والعلماء والأشراف. وكان مفروضا حتى في غياب السلطان؛ فلو ورد كتابٌ من السلطان إلى أحد رعاياه وهو بعيد عنه، وجب عليه القيام والخرور إلى الأرض مقبِّلا، ثم يرفع رأسه ويقرأ كتاب السلطان[4].

وكاتب الإنشاء المشهور الملقب بالقاضي الفاضل (ت596)[5]؛ استعار في

الملقب بالمُعِزّ لدين الله، تنسب إليه القاهرة المُعِزِّيّة، مولده بالمهدية سنة 319، وبويع بالسلطنة في بلاد المغرب سنة 341 بعد موت أبيه، وخرج من المغرب سنة 361 ودخل الإسكندرية سنة 362. ترجمته في النجوم الزاهرة 74/4.

[1] بَرسباى الدقماقى الظاهرى البرقوقى، ولي السلطنة سنة 825، واستمر إلى أن مات سنة 841. ترجمته في البدر الطالع للشوكاني.

[2] انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 83/14.

[3] انظر: النجوم الزاهرة، المرجع سابق.

[4] انظر: النجوم الزاهرة، المرجع سابق.

[5] قال ابن السبكي في ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى: عبد الرحيم بن علي بن الحسن، القاضي الفاضل محي الدين أبو علي، العسقلاني مولدا المصري، إمام الأدباء وصاحب صناعة الإنشاء، أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل مِن بَعدِه مثلَه ولا مِن قَبلِه، بأكثر من مائتي عام..، وهو بينهم كالشافعي وأبي حنيفة بين الفقهاء، ولد سنة 529، وكان ذا دين وتقوى وتقشف ←

إنشائه عادةَ تقبيل الأرض، من الفعل إلى الكتابات الموجَّهة إلى الخلفاء والملوك والسلاطين والرؤساء؛ فأنشأ أسلوب افتتاح الخطاب الموجه إلى العظماء بذكر تقبيل الأرض؛ فانتقلت العادة من الفعل إلى المكتوب، وتبعه الكُتّاب مِن بعده، واستقر أسلوبا في دواوين الإنشاء[1].

أما حكم تقبيل الأرض ففي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: "سئل رحمه الله عمن يَبُوس الأرض دائما، هل يَأْثَم؟ وعَمَّنْ يَفْعَل ذلك لِسَبَبِ أَخْذِ رِزْقٍ، وَهو مُكْرَهٌ كذلك؟ فأجاب: أمّا تَقْبِيل الأرض وَرَفْع الرَّأس وَنَحو ذَلِك؛ مِمّا فِيه السُّجودُ، مِمّا يُفْعَلُ قُدّامَ بَعْضِ الشُّيُوخ وبَعْضِ المُلوك؛ فَلا يَجُوز، بَلْ لا يَجُوز الاِنْحِناءُ كَالرُّكُوع أيْضا"[2].

تبادل التكريم والهدايا بينه وبين سلطان مصر

لم تمنع حادثة طلب تقبيل الأرض، من توطُّد العلاقة بين منسا موسى والسلطان محمد بن قلاوون؛ ويدل على قوة العلاقة الوليدة بين الاثنين، تبادل الهدايا الثمينة وبذل التكريم الحميم من الطَّرفين.

أمارة ذلك من طرف سلطان مصر: إهداؤه إلى ضيفه وأصحابه الخلع الكاملة من الأحصن المزيَّنة بأفخر الحُلِيّ، والعِصِيّ الفاخرة، والثياب الكاملة

مع الرياسة التامة والإغضاء والصفح والحلم والعفو والستر، صاحب أوراد من صلاة وصيام وغيرهما، مع التمكن الزائد في الدولة... انتهى كلام ابن السبكي. فهذا مع ما يذكره به ابن السبكي من الدين والورع، لم يَرَ غضاضة أن يَزِيد على قُبح عادة تقبيل الأرض؛ أن يجعلها في المكاتبات، ما يدل على أن العامة والخاصة وأهل الدين والورع كلهم تقبلوها.

[1] انظر: صبح الأعشى للقلقشندي 326/6، وانظر حكم تقبيل الأرض ونحوه في المكاتبات في: الآداب الشرعية لابن مفلح 384/1.

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية 372/1، وانظر أيضا: الآداب الشرعية لابن مفلح 365/2، وغمز عيون البصائر للحموي 101/1، والفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي 571/3.

المُزَرْكَشة، ورباط المناطق المرصَّعة بالذهب، والعمائم الغالية، والسيوف المُحلّاة، والمناديل المصنوعة من أعلى أنواع القماش، كما أنزله بقصرٍ ملّكه إياه، ووَفَّر له في القصر كلّ ما يحتاج إليه مِن نُزل وقِرى، ولمّا آن وقت مغادرته إلى الحجاز بعث إليه دراهم كثيرة لنفقته، وجمالا وحمرا لركوبه، وهيّأ له ولقومه كل ما يحتاجون إليه من تجهيزات وآلات في طريق الحج، وجعل لموكبه صبغة رسمية، وأَمَر الأمراء بإكرامه واحترامه وخدمته إلى أن يقضي حجه.

وأمارة ذلك من طرف منسا موسى إهداؤه إلى مضيفه: كمية كبيرة من الذهب التبر، تصل إلى خمسين ألف دينار، وأهدى لنائبه[1] عشرة آلاف، وخصّ جميع أرباب الوظائف السلطانية بجملة من الذهب[2].

وكانت هدية كل سلطان تناسب حاله؛ فمنسا موسى وهو بعيد عن وطنه، لا يتوافر لديه إلا الذهب الذي حمله من بلده بسخاء ووفرة؛ فلم يُذكر في هديته لسلطان مصر لما وصل من مالى، شيءٌ آخر غير الذهب، لا رقيق ولا غير ذلك، مع وفرة ذلك أيضا. وكان كرمه وإحسانه في الكمية؛ فقد أهدى مقدارا هائلا بقي التعجب منه على مرِّ القرون.

أما السلطان محمد بن قلاوون، وهو في عاصمته ومقر حكمه في عز أمره وقوته؛ فقد أهدى إلى منسا موسى ما هو كثير لديه، وضيفه بحاجة إليه: المنزِل والقِرى، واللباس والمركوب. وكان كرمه وإحسانه في النوعية؛ فقد أهدى من كل

---

[1] ذكر القلقشندي في صبح الأعشى 17/4 أرباب الوظائف في دولة المماليك في مصر، فأعلاهم أرباب السيوف، وأقوى أرباب السيوف مَن يكونون بحضرة السلطان، وأَوَّل هؤلاء هو مُتولّي وظيفة النيابة، وذكر اختصاصاته، قال: "وهوَ سُلْطانٌ مُخْتَصَر، بَلْ هُوَ السُّلطان الثّاني".

[2] انظر: العبر 69/4-72، ومسالك الأبصار 312/4، وأعيان العصر 477/5، وتاريخ ابن خلدون 495/5-496 والدرر الكامنة 383/4-384، وبدائع الزهور لابن إياس 138/1، والبدر الطالع 314/2.

نوع أعلاه.

هداياه للأمراء والعلماء والأعيان

لم تقتصر هدايا منسا موسى على السلطان ونائبه فحسب، بل عمّ أعيان مصر من العلماء والأمراء وغيرهم. ولم يَكْتَفِ بالهدايا حين مرّ بمصر ذهابا وعودة، بل كان يُرسِل مِن مالي بالهدايا إلى مَن عرفه بمصر:

فأهدى إلى الأمير أبي الحسن ابن أمير حاجب، أمير القرافة خمسمائةَ مثقال[1]. كان ابن أمير حاجب أمير القرفة التي كان فيها القصر الذي نزل فيه منسا موسى وتوثقت بذلك علاقتهما الشخصية.

وأهدى إلى المَهْمَنْدار أبي أحمد بن الجاكي، وهو الأمير المسئول عن لقاء الوفود، وهو الذي راود منسا موسى في الطلوع إلى السلطان. ولم تُحدِّد مصادرنا مقدار الذهب الذي أهداه إليه؛ لكن يَدُلّ على قَدْره أن المَهْمَنْدار لما توفي "وَجَد الدِّيوانُ فِيما خَلَّفه آلافا مِن الذَّهَب المَعدَنِيّ مِمّا أعطاه لَه، باقِياً على حالِهِ في تُرابِهِ لَمْ يُصَنّع"[2].

وأهدى منسا موسى إلى الشيخ شمس الدين ابن الأكفاني (ت749) جملة كبيرة من الذهب[3].

---

[1] انظر: مسالك الأبصار 122/4.

[2] مسالك الأبصار 122/4.

[3] انظر: أعيان العصر للصفدي 477/5 وابن الأكفاني هو محمد بن إبراهيم بن ساعد، شمس الدين أبو عبد الله ابن الأكفاني، عاش في مصر، وبرع في علوم الرياضة والهندسة والحساب والهيئة، مع استحضار كثير من وقائع العرب وأيامها وتواريخ الأعيان، وتوفي في طاعون مصر عام 749. قال الصفدي: "اجتَمعتُ به.. أما الرُّقَى والعَزائم فَيَحْفَظُ مِنها جُمَلاً كثيرة، يَسْرُدها سرداً، وله اليد الطُّولى في الرُّوحانيات والطَّلاسِم وإخراج الخَبايا، وما يَدخُل في هذا الباب.. وأما مَعرفة الرَّقيق مِن المَمالِيك والجَواري فَإِلَيْهِ المَآل في ذَلك". انظر ترجمته في: أعيان العصر، والدرر الكامنة.

وأهدى مائتي مثقال إلى مُهنّا بن عبد الباقي العجرمي الدليل[1].

ويدل على سعة عطاياه في مصر ما نقله القلقشندي في إحسانه، قال: "ولقد أفاضَ هذا الرجلُ بِمِصر فَيْضَ الإحْسان؛ لَم يَدَعْ أمِيرا مُقَرَّباً ولا رَبَّ وَظِيفةٍ سُلْطانِيّة؛ حَتّى وَصَلَه بِجُمْلةٍ مِن الذَّهَب"[2]. وما أكثر أرباب الوظائف السلطانية في ذلك العهد! وقد ذكر منهم القلقشندي نفسه في صبح الأعشى عددا كبيرا؛ منهم وظائف ديوان الإنشاء، ووظائف أرباب السيوف كالوزارة وغيرها، ووظائف أرباب الأقلام، ووظائف عامة الجند[3].

أثر مروره في مصر

أثَّر مرور منسا موسى بمصر في طريق الحج ذهابا وعودة؛ أثراً كبيرا لم تمحه العقود، ولا أنساه توالي الوفود وتتابع السلاطين والملوك. وأكبر أثرٍ طَبَع المصريين، ومن ورائهم كُلَّ المُسلمين، بل وحتى غير المسلمين؛ هبوطُ قيمة الذهب بالنسبة للفضة. ويحكي ابن فضل الله ذلك بنسبة معينة؛ فذكر أن الدينار كان يساوي قبل مجيئه خمسة وعشرين (25) درهما، فغادر منسا موسى مصر وهو يساوي اثنين وعشرين (22) درهما؛ أي انخفض الدينار ثلاثة دراهم من خمسة وعشرين؛ وذلك نسبة اثني عشر في كل مائة (12%). وذكر ابن فضل الله استمرار الهبوط إلى اثنتي عشرة سنة بعد مرور منسا موسى[4].

---

[1] انظر: مسالك الأبصار 125/4.

[2] صبح الأعشى 283/5، ومثله في الدرر الكامنة 383/4-384.

[3] انظرها مفصلة في صبح الأعشى.

[4] انظر: مسالك الأبصار 122/4، 125. ومقدار الهبوط عند الذهبي درهمان (العبر69/4)، وتبعه الصفدي واليافعي وابن كثير (أعيان العصر 477/5، مرآة الجنان 204/4، البداية والنهاية 240/18-242). ولعل الفرق بينهم وبين ابن فضل الله نبع بسبب جبره الكسر وإلغائهم إياه، على أن الذهبي شامي تبعه شاميون، واليافعي ينقل بمثل ألفاظ الذهبي، أما ابن فضل الله فيحكي وهو في مصر ←

وهبوط الذهب سببه كثرة ما بذل منه منسا موسى وقومه، حتى كثر بأيدي الناس؛ فَهانَ وَرَخُص. ولقد بذلوا الذهب في الهدايا الثمينة والعطايا الكثيرة التي سبق الكلام عنها، وفي شراء الأطعمة والثياب وأنواع الجواري والسلع المختلفة التي احتاجوا إليها، لكنهم اشتروها بأضعاف أسعارها المعتادة، وبأثمان مرتفعة وغالية غلاء فاحشا؛ بسبب جَشَع التُّجّار وغِشِّهم وسوء معاملتهم.

قال ابن فضل الله: "وحَدَّثَني خَلْقٌ مِن تُجّار مصْر والقاهِرة، عَمّا حَصَل لَهُم مِن المَكاسِب والرِّبْح عَلَيْهم؛ فإنَّ الرَّجُلَ مِنْهم كانَ يَشْتَري القَمِيصَ أو الثَّوبَ أو الإزارَ وغَيْرَ ذلك بِخَمْسة دَنانِير، وَهوَ لا يُساوِي دِيناراً واحدا، وكانُوا في غايةِ سَلامةِ الصَّدْر والطُّمَأْنينة؛ يُجَوَّز عَلَيْهِم مَهْما جُوِّز عَلَيْهم[1]، ويَأْخُذُون كُلَّ قَوْلٍ يُقالُ لَهُم بِالْقَبُول والصِّدْق"[2].

من مصر إلى الحجاز

بقي منسا موسى في قصره في الجانب الشرقي من النيل في القرافة الكبرى،

وينقل عمن عاش الأحداث عن قرب. وقد أبعد المقريزي فقدّر الهبوط بستة دراهم. انظر: السلوك 73/3، والذهب المسبوك ص141.

[1] يُجَوَّز عليهم: أي يَقبَلون الدراهم في المعاملات بيعا وصرفا وغيرها، على ما فيها ولا يردّونها، مهما ظهر بها من عيب، (تاج العروس مع القاموس والمعجم الوسيط: جوز).

[2] مسالك الأبصار 122/4، وانظر: كنز الدرر وجامع الغرر/ الدر الفاخر في سير الملك الناصر لابن الدواداري 316/9، وفيه أن التجار اشتروا منهم بنصف السعر بعض ما كانوا باعوا إليهم لما احتاجوا. وانظر: السلوك للمقريزي 73/3. وذكر سببا آخر لنزول سعر الذهب في السنة الموالية لسنة حج منسا موسى، قال 80/3 في حوادث سنة 725: "أخَذَ العَسْكَر في التَّجْهِيز.. فَانْحَطَّ سِعر الدَّنانِير مِن خَمسة وعِشرين إلى عِشرين دِرهماً؛ لِكَثرة ما باعُوا مِن الحُلِي والمُصاغ". ويمكن أن يكون هذا زاد من هبوط الذهب أكثر من هبوطه درهمين في العام قبله بسبب قدوم منسا موسى وقومه. والله أعلم.

حوالي ثلاثة أشهر: بقيةَ شهر رجب، وشهر شعبان وشهر رمضان، وبعض شهر شوال. ثم غادر مصر ومعه قومه ومرافقوه، في آخر شهر شوال. وكانوا في مؤخرة ركب الحج السلطاني من مصر، منفردين عنه. قال المقريزي في حوادث شهر شوال من سنة 724: "وفِي يوم الثلاثاء ثامِن عشْريه، رَحَلَ الرَّكْبُ مِن بِرْكة الحاجِّ إلى الحِجاز"[1].

ومراسم ركب الحج من مصر: أن يُطاف بالمِحْمَل[2] الذي فيه كسوة الكعبة، في شهر شوال أو قُبَيْله، ثم ينطلق الركب في شوال إلى بِرْكة الحجاج، ثم بعد أيامٍ تنطلق جموع الحجاج من البِرْكة إلى الحجاز، وقد يختلف ذلك في بعض السنوات تقدّما وتأخّرا؛ لأسباب خاصة[3].

وخرج ركب الحج المصري في سنة حج منسا موسى، بإمارة سَيف الدِّين أَيْتَمُش المحمدي[4]، وأوصاه السلطان محمد بن قلاوون بمنسا موسى وقومه؛ باحترامه وخدمته. لكن منسا موسى لم يشأ أن ينضم إلى الركب الرسمي للحج من مصر، بل كوَّن بقومه ركبا منفردا، متأخرا في ساقة الركب السلطاني، وكان في

---

[1] السلوك لمعرفة دول الملوك 74/3.

[2] المِحمَل: من آلات السفر، يُحمل على ظهر الجمل، يكون فيه الأكابر ومن يُحتَرَم. وكان يُحمَل فيه كسوة الكعبة من الديار المصرية مع أمير الركب، فيخرج أمير مكة لملاقاته خارج مكة. انظر: صبح الأعشى 244/1 في آلات السفر، وانظره 281/4 في تجهيز ركب الحجيج من مصر إلى الحجاز.

[3] انظر خروج ركب الحج مع المِحْمَل في شهر شوال في: إنباء الغمر، حوادث سنوات 806 (267/2)، 820 (135/3)، 825 (281/3)، 838 (551/3)، 840 (51/4)، 842 (112/4). والسلوك للمقريزي، حوادث أشهر شوال لسنوات 723، 811، 832، 833، وغيرها. بل قال المقريزي في السلوك، حوادث شهر شوال سنة 680: "وفِي شَوّال سارَ المِحْمَل إلى الحِجاز عَلى العادة". ومثله في إنباء الغمر لابن حجر، قال في حوادث سنة 825 (277/3): "وفِي شَوّال خَرَج الرَّكْبُ على العادة".

[4] من أمراء المماليك، تولى إمارة أقاليم وقاد جيوشا للسلطان محمد بن قلاوون وأبيه قبله. توفي أيتمش وهو أمير صفد سنة 736، انظر المقفى الكبير للمقريزي 335/2-342.

ركبه جماعة انضموا إليه من أكابر المصريين. وبقي منسا في ركبه المفرد حتى تمام الحج[1]. وتأخر عن الركب في العودة كذلك، كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

في الحجاز

وصل منسا موسى إلى مكة، وقضى حجّه، ثم توجه إلى المدينة وزار المسجد النبوي[2]، وتشرّف بالسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكان مِن أكبر أهدافه في حجه، الوصول إلى المدينة وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما سبق في دوافعه إلى الحج.

وتأخر ركبُ منسا موسى عن الركب الرسمي من مصر، بسبب إقامته بالحجاز بعد الحج ثلاثة أشهر، وكان موسم الحج ذلك العام في فصل الشتاء البارد، فقضوا كلَّ فصل الشتاء في مكة والمدينة؛ فمات كثير من قومه من شدة البرد الذي لم يعتادوا على مثله، وفَتَك البرد كذلك بمراكبه من الجمال وغيرها حتى لم يرجع إلى مصر إلا بثلث ما غادرها[3].

وكان مَنزِل منسا موسى في مكة بحيِّ رِباط الخُوزِي، في غرب المسجد الحرام، مُطِلاًّ على باب إبراهيم، قريبا من المسجد. وقد سكن تلك الجهة بعض مشاهير علماء المذهب المالكي وغيرهم[4].

---

[1] انظر: الذهب المسبوك ص143، والدرر الكامنة 383/4-384.

[2] نصّ على وصول منسا موسى المدينة المنورة وزيارته المسجد النبوي ابنُ فضل الله في مسالك الأبصار 120/4، والفع محمود كعت في تاريخ الفتاش ص36. ويؤيده أنه تأخر بعد الحج ثلاثة أشهر، ويبعد أن يبقى كل تلك المدة ولا يصل إلى المدينة النبوية كعادة الحجاج في كل عصر، خاصة وأنه عزم على الحج وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

[3] انظر: الذهب المسبوك ص143، والدرر الكامنة 383/4-384.

[4] انظر: مرآة الجنان 204/4. ورباط الخُوزِي: بالزاي المعجمة، كان عند باب إبراهيم غربي المسجد الحرام، وفي جهة جبل أَجْيَاد والمسفلة. وهو منسوب إلى أبي حفص عمر بن مكي الخوزي الشافعي البغدادي، حج ←

فتنة بين أصحابه والأتراك

نشبت فتنة بين عسكر منسا موسى والعسكر المملوكي؛ وكان الحجاز تابعا لسلاطين المماليك الأتراك بمصر في ذلك العهد. وكادت تلك الفتنة أن تتطاير شرارتها وتتفاقم إلى مواجهة مفتوحة. نقل إلينا اليافعي ما حصل[1]؛ وكان ساكنا مجاورا بمكة عامَ حجَّ منسا موسى، فلْنَدَعْهُ يحكي، قال عن منسا موسى:

"ومِن عَقْلِه أنِّي رَأَيْتُهُ في مَنْزِلِه فِي الشُّبّاك المُشْرِف عَلى الكَعْبة بِحَيِّ رِباط الخُوزِيّ،

وأقام بمكة حتى توفي سنة 627. وكان الرباط حيا في القرون السابع والثامن والتاسع. وجهة باب إبراهيم التي فيها الرباط سكنها علماء وأعيان منهم مالكيةٌ، ومن أشهرهم الفقيه خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين ابن الجندي المالكي، صاحب المختصر في الفقه، جاور بمكة مدة وكان له دهليز هناك، ثم توفي بمصر سنة 767. وممن سكن رباط الخوزي محمد بن علي بن محمد، سقط من سقف رباط الخوزي فمات سنة 710. وأحمد بن سليمان بن أحمد المصري المالكي، توفي في رباط الخوزي سنة 712. ومهنا بن أبي بكر بن إبراهيم بن يوسف الزين، ولد بمصر وخدم الفقراء برباط الخوزي سنين، ثم ولي مشيخته نحو ثلاثين سنة، واشتهر بذلك عند الناس، توفي 820. وجَدَّدت رباطَ الخوزي شيرين الرومية أمُّ السلطان فرج الملقب بالملك الناصر، ووقفَتْ عليه، وأصلحت ما تَهَدَّم منه، توفيت سنة 802. وذكر ابن بطوطة (ت779) زاوية كبيرة للمالكية خارج باب إبراهيم فيها دار إمام المالكية، وذَكَر بمقربة من الباب رباطا لكنه سماه "رباط الموفق" قال: "وهو مِن أَحْسَن الرِّباطات، سَكَنْتُه أيامَ مُجاوَرتي بِمَكةَ المُعَظَّمة" اهـ. والخوزي نسبة إلى خوزستان من بلاد العجم. انظر: رحلة ابن جبير (ذكر أبواب الحرم الشريف) ص82–83، والديباج المذهب لابن فرحون (ترجمة خليل) 357/1، ورحلة ابن بطوطة 101/1، والسلوك لمعرفة دول الملوك (وفيات سنة 767 ترجمة خليل)، وتوضيح المشتبه ("الخوزي"، في الكلام على "الجوزي")، والدرر الكامنة (ترجمة محمد بن علي بن محمد، وخليل بن إسحاق المالكي)، والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (في ترجمة السائب بن عبد الله السائب) 114/2، و(ترجمة عبد الله، أبي محمد الهواري) 440/2، والضوء اللامع (ترجمة مهنا بن أبي بكر بن إبراهيم، وأحمد بن سليمان بن أحمد المالكي)، والمنهل الصافي (ترجمة شيرين بن عبد الله الرومية)، والروض المعطار (أجياد)، وتاج العروس (الخوز).

[1] وذكرها نجم الدين ابن فهد (ت885) في إتحاف الورى بأخبار أم القرى 179/3. والظاهر انه ينقل عن اليافعي كما سبق في دراسة المصادر. وعبد القادر الجزيري (ت977) في الدرر الفريدة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (360/1).

وَهو يُسَكِّن أصحابَه.. عِنْدَ هَيَجانِ فِتْنةٍ ثارَتْ بَيْنَهُم وَبَيْنَ التُّرْك[1]، وقَد شَهَّروا فِيها السُّيُوف في المَسْجِد الحَرام، وَهو مُشْرِفٌ عَلَيْهم؛ فَيُشِيرُ عَلَيْهِم بِالرُّجُوع عَن القِتال، شَدِيدَ الغَضَب عَلَيْهم في تِلْك الفِتْنة، مِن رُجْحان عَقْله؛ إذْ لا مَلْجَأَ لَهُ ولا ناصِرَ فِي غَيْرِ وَطَنِه وأَهْلِه، وَإنْ ضاقَ الفَضاءُ بِخَيْلِه وَرَجْلِه"[2].

بِرُّه وإحسانه في الحَرَمَيْن

لم يقلّ إنفاق منسا موسى وإحسانه في الحرمين عن إنفاقه في مصر وقبلها؛ فتصدق فيهما بمال كثير، وأفاض هو ومن معه على الحجيج وأهل الحرمين من كرمهم المطبوع ما استعظمه دليله في سفره إلى الحرمين؛ مهنا بن عبد الباقي العَجرَمِي، وكل ذلك في عفاف ودِين، وسعة ورفاهية، وحسن ظَنٍّ وتجمُّلٍ في المعاملة[3].

وحدَّد السعدي ما أنفقه منسا موسى في الحرمين بعشرين ألفا ذهبا، في معرض مقارنة ما أنفقه بما أنفقه السلطان أسكيا محمد، وهو مائة ألف، قال: "فورَّخَ أهلُ المَشرق مَجِيئَه ذَلِك، وَتَعَجَّبُوا مِن قُوَّتِه في مُلْكِه، وَلَكِنْ ما وَصَفُوه

---

[1] تُطلِق مصادرنا على دولة المماليك في العصر المذكور: "الترك"، و"الدولة التركية"؛ قال المقريزي في كتابه "السلوك" 79/3 في حوادث سنة 725: "وفِيهِ اجْتَمَع بِمِصْر مِن رُسل المُلوك ما لَم يَجْتَمِع مِثْلُهم في الدَّولة التُّركية". وفي صبح الأعشى 506/1: "وَكَذلِك دَوْلة الأتراك مُلُوك مصر، أَوَّلُهُم المُعِزّ أَيْبك"، ثم ذَكَر مَن تَسلسلَ منهم في السلطنة، إلى أن ذكر الناصر محمد بن قلاوون، والظاهر برقوق، والناصر فرج. اهـ وكان مكة تابعة لسلاطين مماليك مصر، يَحكُمها نيابةً عنهم في تلك الحقبة، أولادُ أبي نُمي من الأشراف. وينقل ابن خلدون في تاريخه 137/4، 494/5 اختلاف أشراف مكة في بداية القرن الثامن، واعتقال ونفي بعضهم بعضا، إلى سلطان مصر، وفصله بينهم في خصومات كثيرة ومتشابكة...

[2] مرآة الجنان 204/4.

[3] انظر: مسالك الأبصار 125/4، والذهب المسبوك ص143، والدرر الكامنة 383/4-384.

بِالجُودِ والكَرَم؛ لأنَّه ما تَصَدَّق في الحَرَمَيْن مَع كَثرة مُلْكِه إلاّ بِعِشرين ألفاً ذهبا، بِنِسْبَة ما تَصَدَّقَ بِه أَسْكِيَا الحاجّ مُحمّد فِيهِما، وَهوَ مِائَة أَلْف ذَهَبا"[1].

ويوهن هذا التحديد، انفراد السعدي به، مع بُعده عن زمان ومكان الحدث، وعدم تطابق ما ذكره من أنّ أهل المشرق لم يصفوا منسا موسى بجود ولا كرم؛ نظرا لكل ما سبق نقله في هذا الكتاب. ويوشك أن يكون العكس هو الصحيح؛ فما ذكره من إنفاق السلطان أسكيا، لم أجده في مصادر مشرقية. والله أعلم.

رحلة العودة إلى مالي

استهلّ منسا موسى سنة خمس وعشرين وسبعمائة (725) بأرض الحرمين، ثم غادرها في ربيع الأول عائدا إلى مصر بعد أن قضى فرضه وحقق أمنيته من أداء الحج وزيارة المدينة النبوية[2].

نكبة في طريق العودة

سبق أنّ منسا موسى قرَّر تكوين ركب خاص به وبقومه ومَن رافقهم مِن مصر؛ منفردا عن الركب السلطاني؛ في الذهاب من مصر إلى الحرمين، وفي العودة كذلك.

أما في الذهاب فلم يحصل له خطر كبير بسبب كونه في ساقة الركب السلطاني قريبا منه. وأما في العودة فقد تأخّر عن الركب السلطاني ثلاثة أشهر، وقضى في بلاد الحرمين ستة أشهر، منها فصل الشتاء[3]؛ ففتك البرد

---

(1) تاريخ السودان ص7.

(2) انظر في سنة عودته: العبر 72/4، ومرآة الجنان 204/4.

(3) في السلوك لمعرفة دول الملوك 79/3 في حوادث 725: أنّ في العاشر من المحرم، قدم أوائل الحاج، وفي ←

بثلثي جنوده ومراكبه، فقَلَّتْ ذات يده بسبب الإنفاق وشراء السلع والمراكب، من أجل تكاليف إعادة بناء جيشه الذي نقص رجاله مِن فَتْك البرد. وقلَّت قُوَّته بموت جنده؛ فانفض عنه مرافقوه العارفون بالطريق، فضلَّ ركبُه في تلك المجاهل التي لا علم لهم بها، ولا هي تشبه أرض مالى، وطمع فيه وفي قومه بعضُ مَن بالطريق مِن الأعراب، فأصبحوا يتخطَّفون مما بقي معه من الرجال والمراكب وغيرها من الأموال. لكن منسا موسى وقومه تخلصوا من التِّيه، وساروا على موازاة البحر الأحمر بالظن والحدس، يتغذَّون بلحم الحوت على قِلَّته، إلى أن خرجوا على بلدة السُّوَيْس الواقعة على البحر الأحمر من أرض مصر[1].

الوصول إلى مصر، تبادل الهدايا بينه وبين سلطان مصر

وصل منسا موسى وقومه إلى مصر بعد نجاتهم من التيه، وتلقاه المهمندار الذي تلقاه عند قدومه من بلاده، واستمرت العلاقة المتوطدة بين منسا موسى وسلطان مصر. والنكبة التي كادت تقضي عليه في طريق العودة من الحرمين،

الخامس والعشرين منه وصل المِحْمَل وبقية الحاج، مع الأمير أَيْتَمْش المُحَمَّدي، أمير الركب. اهـ فالحجاج وصلوا من الحجاز ما بين العاشر إلى الخامس والعشرين من شهر محرم سنة 725. وإذا بَنَيْنَا على ما ذكره ابن حجر من كون منسا موسى تأخر بعد الحج ثلاثة أشهر، وما ذكره ابن خلدون من كونه تاه في طريق العودة؛ فنقدر عودته إلى مصر في آخر ربيع الأول سنة 725. وشهر شوال الذي انطلق فيه إلى بلاد الحرمين سنة 724، إلى شهر ربيع الأول سنة 725 الذي رجع فيه إلى مصر؛ يصادف ذلك من الشهور الشمسية، من شهر أكتوبر سنة 1324 إلى شهر مارس سنة 1325؛ وذلك جميع فصل الشتاء.

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 5/495-496، وقال في تاج العروس مع القاموس: "والسُّوَيْس: أحَد الثُّغُور المصريّة، مَدِينةٌ عَلى البَحرِ المِلْح، إِلَيْها تَرِدُ السُّفُنُ الحِجازية". اهـ ومدينة السويس أحد موانئ جمهورية مصر اليوم، على البحر الأحمر، في المدخل الجنوبي لقناة السويس. انظر: خريطة مصر.

ونفاذ أمواله بسبب الإنفاق على إعادة بناء جيشه وشراء المراكب لهم ولقومه، وبسبب تخطف الأعراب؛ لم يمنع كلُّ ذلك منسا موسى أن يهدي إلى سلطان مصر شيئا من الهدايا التي اشتراها في الحرمين، فقَبِله منه سلطان مصر، وجدَّد هو له ولقومه الهدايا القيمة والهبات الواسعة التي كان أهداهم مثلها قبل انطلاقهم إلى الحرمين؛ من الثياب والمتاع الفاخر والمراكب الوثيرة والهدايا الكريمة، وأبقاه في ضيافته في سعة حال، ورفاهية وراحة بال، ووفّر العَلَف لمراكبه ودوابّه.

وبقي منسا موسى وفيّاً بعهد الصداقة التي حاكت الهدايا خيوطَها، وأحكم التكريم المتبادل عقودها؛ فنقل ابن فضل الله العُمري أنه أرسل إلى سلطان مصر، بعد رجوعه إلى بلاده، خمسةَ آلاف مثقال من الذهب؛ هديةً كلَّف بإيصالها بعضَ المقربين إليه الذين انطلقوا للحج، وحمَّله رسالة أودعها وصية سلطان مصر بحاملها، بأدب رفيع وأسلوبٍ وخُلُق[1].

نفاذ الذهب والاقتراض من التجار

عاد منسا موسى من الحجاز إلى مصر وقد نفذ كلُّ الذهب الذي حمله معه؛ بسبب نفقات زائدة غير متوقعة، فقد هلك ثُلُثَا جنده ومراكبه؛ من أجل البرد الفتاك الذي أصابهم في أرض الحرمين بعد الحج؛ فاقترض هو وأمراؤه على ذمته، من كبار تجار مصر؛ لشراء ما يحتاج إليه لإعادة بناء جيشه من التجهيزات، ولشراء الجمال والمراكب، وفي شراء كتب الفقه المالكي التي رجع إلى بلده بجملةٍ منها، وشراء السلع التي يحتاجون إليها من الأطعمة والثياب.

وقد تسارع أعيان التجار إلى إقراضه، بما طمعوا فيه من الأرباح الفاحشة؛ فكانوا يربحون سبعمائة دينار في كل ثلاثمائة دينار.

---

[1] انظر: مسالك الأبصار 125/4، والعبر 72/4، وتاريخ ابن خلدون 495/5-496.

وكان من أشهر التجار الذين أقرضوا منسا موسى وقومَه، سراجُ الدين ابن الكُوَيك[1] وإخوته، من تجار الإسكندرية، أقرضوه خمسين ألف دينار، واشترى سراج الدين من منسا موسى القصرَ الذي كان نازلا فيه في القرافة الكبرى، وهو قصر كان ملَّكه إياه السلطان محمد بن قلاوون، فأمضى السلطان الصَّفَقة.

ورجع مع منسا موسى إلى مالى، جماعةٌ من التجار؛ لقبض أموالهم، وبعضهم أرسلوا معه وكلاءهم، فأحسن إليهم جميعا في القضاء، ووفّى لهم ديونهم[2].

ولم تذكر مصادرنا مدة إقامة منسا موسى بعد عودته من الحجاز، ولا أظُنُّه يمكث طويلا، وقد قَلَّتْ ذاتُ يده، واحتاج إلى الاقتراض من التجار. ونتصوَّر بسهولة، أن الحفاوة به قد ضعفت، والتردد على باب قصره قد قَلَّ، وزاد من عِظَم مُصابه أن يعود إلى مصر محتاجا، ويثقل نفسَه وخزانة دولتِه بالديون؛ وقد مَرَّ بها قبل أشهر منفقا سخيا على السلطان وخزانته والأعيان، وما زالت تلك الأموال في الخزانة وهو محتاج! فيصعب البقاء طويلا على مثله في مثل تلك الظروف.

استنجاد طالب سلطة به

كان أبو عبد الله المعمَّر بن خديجة الكُومي[3]، مِن طلاّب السُّلطة ومبتغي

---

[1] عبد اللطيف بن أحمد بن محمود، سراج الدين أبو الفرج ابن الكُوَيك، من كبار تجار الإسكندرية، شافعي المذهب، كان يَحْضُر حلقة أبي حيان صاحب التفسير، توفي بتنبكتُ سنة 734، ترجمته في أعيان العصر.

[2] انظر: نهاية الأرب للنويري 54/33، ومسالك الأبصار 121/4، ورحلة ابن بطوطة 247/2، وتاريخ ابن خلدون 495/5-496، وصبح الأعشى 284/5، والذهب المسبوك ص143، والدرر الكامنة 383/4-384.

[3] المعمَّر المذكور نصَّ ابن خلدون أنه من نسل عبد المؤمن الكُومي، صاحب ابن تومرت، وهو ←

الرئاسة؛ ألَّفَ جماعاتٍ وخرج بهم في منطقة الزاب[1] في بلاد المغرب، يدعو للمهدي المنتظر، فلم يفلح في الوصول إلى هدفه. وسبَّبت له دعوته عداواتٍ كثيرة، فَخَدعه أعداؤه من قبيلة وارْكْلا[2] حتى تمكنوا منه وحبسوه مدة، ثم خَلَّوْا سبيله بعد حين.

وكان المعمر الكُومي قد سمع باستفحال أمر مالى، وقوة سلطانه على ساكني الصحراء المجاورين لبلاده من وارْكْلا وغيرهم، وسمع أنّ سلطانها منسا موسى تَوجَّه إلى الحج؛ فانتهز فرصة عودته من الحج، وانطلق من الزاب إلى بلدة غدامس الواقعة في طريقه، على مشارف مناطق نفوذه وسيطرته، وأقام بها ينتظره، فلما وصلها لَقِيَه، وتوثّقت علاقته به، واختص به دون أصحابه بالأحاديث والمآكل وأصناف الحلوى، وطلب منه جيشا يحارب به عدوَّه ويُحَقِّق به هدفه.

لم يشأ منسا موسى أن يجيب المعمر الكُومي على طلبه فورا؛ وهو خارج حدود بلده، لكن رحّب به وبَرَّه وأحسن إليه، ووعده بمساعدته على أخذ ثأره،

عبد المؤمن بن علي، أبو محمد القيسي الكُومي، وهو الذي أقام محمد بن تومرت المعروف بالمهدي، مدةً يبحث عنه، حتى وجده وصَحِبَه، وهو إذ ذاك غلام، وعمل في تجهيز الجيوش وترتيب الأمور له، حتى مَلك عبد المؤمن بعد وفاة ابن تومرت، وشمل مُلكه المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثيراً من بلاد الأندلس، وتسمَّى بأمير المؤمنين، توفي سنة 558. والكومي نسبة إلى كُومِية، وهي قبيلة صغيرة كانت نازلة بساحل البحر من نواحي تلمسان. انظر ترجمته في وفيات الأعيان.

[1] الزاب: منطقة تاريخية كبيرة من بلاد المغرب، تقع بين تلمسان وسجلماسة. انظر: معجم البلدان، والروض المعطار. وهي اليوم في جمهورية الجزائر، ومن مدنها بسكرة وقسطنطينة. انظر: موقع مجلة "أصوات الشمال" [www.aswat-elchamal.com]، مقالة بعنوان: "الزاب: المصطلح والدلالات"، لفوزي مصمودي، نشر في الموقع بتاريخ 1432/12/9= 2011/11/05.

[2] "وارْكْلا" أو "وارقْلا": اسم قبيلة من البربر، وهو اسم البلدة التاريخية التي اختطتها القبيلة المذكورة، شرقي بلدة "بسكرة"، وكانت قريبة من مناطق نفوذ مالى. انظر: تاريخ ابن خلدون 7/67-70. و"بسكرة" من مدن جمهورية الجزائر اليوم.

واستصحبه إلى مالى[1].

في مالى بعد الحج، جلبه الأعيان إلى بلاده

حَرِص منسا موسى في طول رحلة الحج ذهابا وإيابا، أن يُقْنِع بصحبته إلى سكنى بلاد مالى، الأعيانَ الذين يرى أنّهم يفيدون بلادَه في دين أو علم أو صنعة أو غيرها. ومن الأعيان الذين وصلوا بصحبته إلى بلاد مالى:

الشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي، المعروف بالطُّوَيْجِن[2]، وكان ماهرا في الأعمال اليدوية. لَقِيَه منسا موسى في موسم الحج بعرفة، فأعجبه أمره، وتوطدت العلاقة بينهما؛ فاستصحبه إلى بلاده، وخصه بأنواع الإكرام والإحسان، واعتنى به عناية بالغة، وأغدق عليه الأموال الطائلة. استوطن الساحلي بلاد مالى حتى وفاته سنة 747، وكان سكنه بمدينة تنبكتُ، وكان له عقبٌ سكنوا مدينة ولاته[3].

بنى الساحلي في عاصمة مالى بناية رائعة ذات قبة مربعة، قال ابن خلدون

---

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-270. ولم يذكر مآل أمر منسا موسى مع المعمر الكُومي. وذكر العلامة سليمان كَنْتِي في "تاريخ مَنْدِى" أن منسا موسى لما وصل بلاده، استشار الشيوخ، فلم يوافقوا على مَدّ المعمر الكُومي بجيش من بلاد مالى؛ لوعورة الصحراء، وبُعْد بلاده عن مالى.

[2] الضبط من ترجمته في نفح الطيب لأحمد المقري (ت1041)، الباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق 414/1. وفيه نقلا عن الأمير ابن الأحمر في كتابه نثير الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان: "العالِم والشاعر المذكور من أهل غَرْناطة، وكان أبوه أمِينَ العَطّارِين بِغَرْناطة. وأبو إسحاق ارتحَلَ عن الأندلس إلى المشرق، فحَجَّ ثم سار إلى بلاد السُّودان، فاستَوْطَنَها ونالَ جاها مَكِينا مِن سُلطانها، وبها توفي". ثم نقل عن غيره أن أبا إسحاق الطويجن "كانت وفاته يوم الاثنين 27 جمادى الأخيرة سنة 747 بتنبكتُ، موضع بالصحراء من عمالة مالي، ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم.. وبذلك ضبطه بخط يده رحمه الله تعالى، قال: ومَنْ نَسَبَه للساحلي فإنه نسبه لجده للأم".

[3] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6-270، والاستقصا للناصري 151/3، 99/5.

حكاية عن المعمر الكُومي: "ورجَعْنا مَعَه إلى حَضْرة مُلْكِه، فأراد أن يَتَّخِذ بَيْتاً بِمَقْعَد سُلْطانه، مُحْكَمَ البِناء، مُجَلّلا لِغرابَته بأرضهم؛ فأَطْرَفَه أبو إسحاق [الطُّوَيْجِن] بِبِناءِ قُبّةٍ مُرَبَّعة الشَّكْل، اسْتَفْرَغ فيها إجادَتَه... وأضْفَى عَلَيْها مِن الكَلْسِ[1]، وَوالى عَلَيْها بِالأَصْبَاغ المُشبعَة؛ فَجاءَتْ مِنْ أَتْقَنِ المَباني، وَوَقَعَتْ مِن السُّلْطان مَوْقِعَ الاسْتِغراب؛ لِفُقدانِ صَنْعَةِ البِناء بِأَرْضِهِم، وَوَصَلَه باثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِن مَثاقِيل التِّبْر، مَثُوبةً عَلَيْها، إلى ما كانَ لَهُ مِن الأَثَرة والمَيْلِ إِلَيْه والصِّلات السَّنِيّة"[2].

وبعد ثمان وعشرين سنة من عودة منسا موسى من الحج، وصل ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد مالى، وبقي بها بين سنتي 753 و754؛ وذكر في عاصمتها قبةً كان يجلس فيها منسا سليمان في أكثر الأوقات، ووصفها بأنها كانت مرتفعة، ذات أبنية مقوّسة مُغَشّاة بصفائح الذهب، وعلى القبة ستائر غالية[3]. لكنه لم يربط تلك القبة بأبي إسحاق الساحلي، وقد ذكره في رحلته لما وصل مدينة تنبكتُ، وذكر أن بها قبره[4].

ووصل صحبة منسا موسى أبو عبد الله المُعمر بن خديجة الكُومي، من نسل عبد المؤمن الداعي المُوَحِّدي، استصحبه إلى بلاده من غدامس حيث أقام الكُومي ينتظره في طريق العودة، وقد وصل إلى عاصمة مالى في صحبة منسا

---

[1] الكِلس: الجير، ويطلى به الحائط أو باطن القصر. (انظر: تاج العروس، والمعجم الوسيط). ويستخدمه ابن خلدون فيما يشبه الاسمنت لطلاء الجدران ولحام اللَّبِن.

[2] تاريخ ابن خلدون 264/6-270.

[3] انظر: رحلة ابن بطوطة 238/2.

[4] انظر: رحلة ابن بطوطة 247/2. وسبق فيما نقله ابن خلدون عن المعمر الكومي أن بلاد مالى لم تكن فيها صنعة البناء. وذكر العلامة سليمان كَنْتِي أن سبب عدم استمرار البناء المذكور، الأمطار الغزيرة والرطوبة العالية المتلفة للمواد التي بنى بها الساحلي.

موسى[1].

ووصل معه تجارٌ من مصر أو وكلاؤهم؛ استصحبهم بعد أن اقترض منهم، ومنهم وكيل سراج الدين ابن الكويك، فأقام ببلاد مالى.

ووصل أربعة من شرفاء مكة، استصحبهم إلى سكنى بلاد مالى؛ تبركا بوجودهم في أرضه. طلب من شيخ شرفاء مكة[2] ثلاثةً أو أربعةً من الشرفاء إلى بلده؛ فلم يفعل ولم يأمر ولم يَنْه، وتعلَّل بالخوف على الشرفاء من الضياع في تلك المجاهل، فأغرى منسا موسى الشرفاء بنقد ألف مثقال لكل من رضي أن يتبعه إلى بلده، فقبل منهم أربعة، ونقد لهم أربعة آلاف مثقال، فتبعوه بأهليهم حتى وصلوا بلاد مالى وسكنوا بلدا ناحية مدينة جَنّى، وقد أكرم أهلُها نُزلَهم ورحَّبوا بهم[3].

أما الشيخ عبد الرحمن التميمي، فاستصحبه منسا موسى من الحجاز، فسكن تنبكتُ، فلقي التميمي بها الفقه المالكي قد راجت سُوقُه، وأردك بها الفقهاء السودانيين قد بلغوا شأوا في المذهب المالكي، فرحل إلى فاس للتفقه فيه،

---

[1] انظر: تاريخ ابن خلدون 264/6–270.

[2] عبارة الفع محمود كعت: "شيخ البلد الحرام"، ويحتمل أنه أمير مكة من الأشراف أو كبير أشرافها مطلقا، وقد كانت إمارة مكة لما حج منسا موسى سنة 724 لأولاد الشريف الحَسَني أبي نُمي، تابعين لمماليك مصر، وهم رميثة وعجلان وحميضة وعطيفة وأبو الغيث وثقبة، والحكم بينهم سجال في حروب وتنازع شديد. انظر: تاريخ ابن خلدون 137/4، 494/5، والمنهل الصافي (ترجمة رميثة بن أبي نمى)، ومرآة الجنان، في حوادث 725 مثلا: 206/4.

[3] تاريخ الفتاش ص37. واستصحاب الأشراف إلى الأقطار كان مطلبا للأعيان والشعوب؛ فقد طلبه منسا موسى لما حَجَّ، وطلبه أسكيا محمد لما حجَّ كذلك، وطلبه أهل درعة؛ فاستصحبوا سلف السعديين حكام المغرب، وطلبه أهل سجلماسة فاستصحبوا سلف العلويين حكام المغرب بعد السعديين؛ وهو الشريف الحسن بن قاسم. قال الناصري عن القاسم: إنه "كان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة". انظر: تاريخ الفتاش ص17، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 88/3، 3/5.

ثم رجع إلى تنبكتُ وتوطّنها، ونَسَل له فيها عقب[1].

قضاؤه ديونه وتوفية غرمائه

لما وصل منسا موسى إلى مالى أسرع إلى سداد الديون لغرمائه أو لوكلائهم الذين سافروا معه إلى بلده، ومَن لم يسافر منهم ولا أرسل وكيلا؛ بَعَث بوفاء دينه إليه راجحا غير منقوص، على الرغم مما اكتنف الاقتراض من جشع الدائنين والمبالغة في الربح الفاحش.

هذا ما ذكره مَن تطرَّق لِمصير ديون التجار المصريين: قال ابن فضل الله: "فاسْتَدانَ على ذِمَّتِه مِن التُّجّار بِمَكاسِبَ كَثِيرة.. ثُمَّ بَعَثَها إِلَيْهِم بِالرّاجِح"[2]. وقال ابن بطوطة: "وبَعَثَ مَعَهم سِراجُ الدِّين وَكِيلَه يَقْتَضِي المال؛ فَأقام بِمالى فَتَوَجَّه سِراجُ الدِّين بِنَفسِه لِاقْتِضاء مالِهِ، وَمَعَه ابنٌ لَه[3]، فَلمّا وَصَلَ تنبكتو أَضافَهُ أبو إسحاق السّاحِليّ، فَكانَ مِن القَدَر مَوتُه تِلْكَ اللَّيْلة[4].. وَوَصَل الوَلَدُ إلى مالى واقْتَضَى مالَه وانْصَرَف إلى دِيارِ مصْر"[5]. وقال ابن حجر العسقلاني:

---

[1] انظر: تاريخ السودان للسعدي ص51، وذكره فيه قبل ذلك ص47، وانظر: فتح الشكور في أعيان علماء التكرور، للولاتي، ص176. قد يكون من أسباب استيطان التميمي تنبكتُ ومثله استيطان الساحلي، مناخها شبه الصحراوي، وصعوبة عيش مثلهما في مناخ السفانا المطير، لا سيما القريبة من الغابات الكثيفة في الجنوب حيث كانت عاصمة منسا موسى. وقد يكون من الأسباب رغبتهما في البقاء في منارة ثقافية كبيرة وقريبة من مثيلاتها في الشمال والشرق. والله أعلم.

[2] مسالك الأبصار 121/4.

[3] في تاريخ ابن خلدون أنه فخر الدين أبو جعفر، محمد بن عبد اللطيف بن أحمد، توفي سنة 769، ترجمته في الدرر الكامنة. ولسراج الدين ابن الكُوَيك ابنٌ آخر، هو عِزّ الدين أبو اليمن، محمد بن عبد اللطيف، ترجمته في الدرر الكامنة كذلك، بعد الابن السابق، وتوفي هذا سنة 790.

[4] توفي ابن الكُوَيك سنة 734 كما في مصادر ترجمته، أي في أوائل عهد منسا مَغا ابن منسا موسى.

[5] رحلة ابن بطوطة 247/2.

"ولـمّا رَجَعَ وَفَّ جَمِيعَ ما عَلَيْه، وأَرْسَل لجَماعةٍ مِمَّنْ رافَقَه في الحَجِّ مِن أكابِر المصْرِيّين – حَتّى والِي مصر – إنْعاماتٍ كَثِيرة"[1].

أما ابن خلدون فقال: "وبَعَثَ سِراجُ الدِّين ابنُ الكُوَيك مَعَه وَزِيرَه؛ يَرُدُّ لَه مِنْه ما أَقْرَضَه مِن المال، فَهَلَك هُنالِكَ، وأَتْبَعَه سِراجُ الدِّين آخِراً بِابْنِه، فَماتَ هُنالِك، وجَاء ابْنُه فَخْرُ الدِّين أبو جَعْفَر بِالْبَعْض، وهَلَكَ مَنْسا موسى قَبْل وَفاتِه؛ فَلَمْ يَظْفَروا مِنْهُ بِشَيْء"[2].

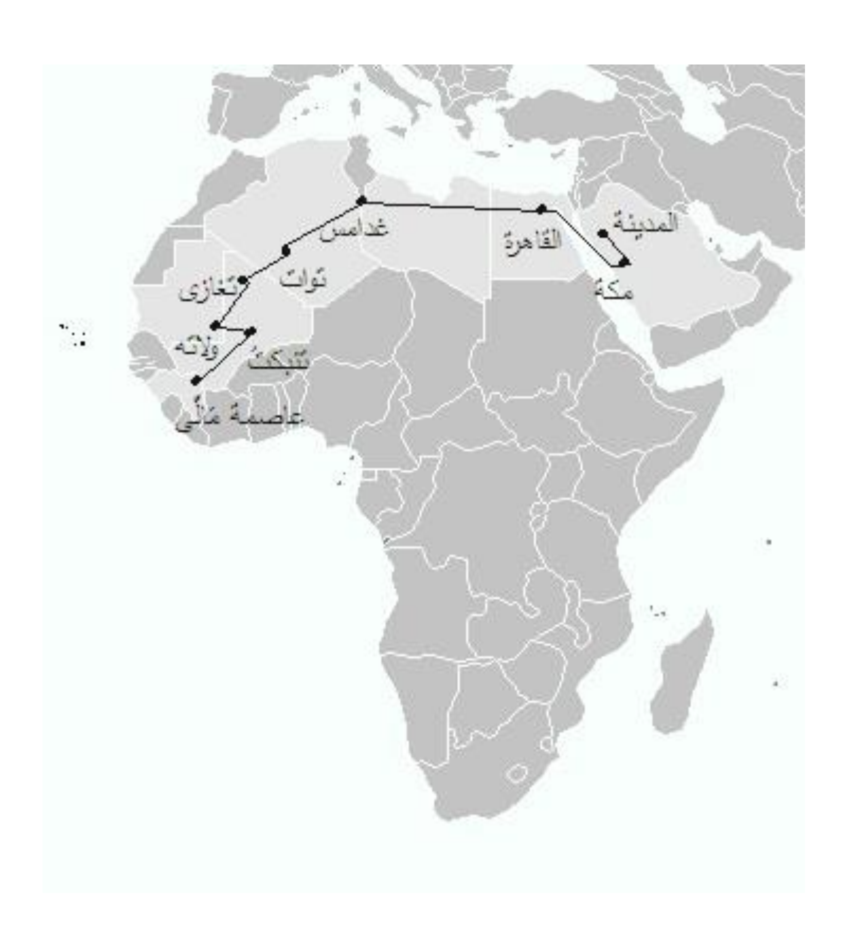
يحتمل ما ذكره ابن خلدون أنّ ابن الكويك لم يظفر بدينه مطلقا، ويحتمل أنه اقتضى دينَه، لكن ليس من منسا موسى نفسه، بل مِن خَلَفه بعد وفاته. والله أعلم.

---

[1] الدرر الكامنة 4/383-384.

[2] تاريخ ابن خلدون 5/495، ونقله عنه الناصري في الاستقصا 3/151، 5/99، ومثله ابن الداواداري في كنز الدرر وجامع الغرر/ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر 9/316.

خريطة طريق حجه



المحتَويات

مقدمة الطبعة الثالثة 5
مقدمة الطبعة الثانية 6
إطلالةٌ على مَصادرنا.. 9
النوع الأول مصادر ذكرت بالنص منسا موسى وحَجَّتَه........................ 9
نهاية الأرب، للنُّوَيْري (ت733).. 9
كنز الدرر، لابن الدواداري (ت736) 10
العِبَر، للذهبي (ت748هـ). 11
مسالك الأبصار، لابن فضل الله (ت749هـ) 13
التاريخ، لابن الوَرْدِيّ (ت749هـ) 15
أعيان العصر، للصَّفَدي (ت764هـ)..16
مِرْآة الجِنان، لليافعي (ت768هـ) 17
البداية والنهاية، لابن كثير (ت774هـ) 19
الرحلة لابن بطوطة (ت779هـ) 19
درة الأسلاك، لابن حبيب الحلبي (ت 779هـ)..20
التاريخ، لابن خلدون (ت808هـ). 21
صُبح الأَعشى، للقَلْقَشَنْدي (ت821هـ) 24
شفاء الغرام، لتقي الدين الفاسي (ت832هـ) 27
السلوك، للمَقْرِيزي (ت845هـ) 28
الذَّهَب المَسْبُوك، للمقريزي (ت845هـ). 28
درر العقود الفريدة، للمقريزي (ت845هـ) 29
الدُّرَر الكامِنة، لابن حجر (ت852هـ) 29
إتحاف الورى، لنجم الدين ابن فهد (ت885هـ) 31
بدائع الزهور، لابن إياس (ت 930هـ) 31
الدرر الفرائد، لعبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري (ت977هـ) 32

تاريخ الفتّاش، لألفع محمود كعت 32
تاريخ السودان، للسَّعدي (ت1066هـ) 33
منائح الكرم، للسِّنجاري (ت1125هـ) 34
فتح الشكور، للبرتَلّي (ت1219هـ) 34
البدر الطالع، للشوكاني (ت1250هـ) 35
الاستقصا، للناصري (ت1315هـ) 35
النوع الثاني مصادر لم تذكر بالنص منسا موسى وحجته 36
نزهة المشتاق، للإدريسي (ت560هـ) 36
كتاب الجعرافية، للزُّهري، (توفي أواسط القرن السادس) 36
معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ) 36
الجغرافيا، لابن سعيد المغربي (وفاته بين 653 و685هـ) 37
تقويم البلدان، لصاحب حماه (ت732هـ) 37
المختصر، للمؤلف السابق 37
البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (ت745هـ) 37
الروض المعطار، للحميري 39
سمط النجوم العوالي، للعصامي (ت1111هـ) 39
مراجع التوثيق 40
مراجع توثيق بغير العربية 43
اسمه: موسى 47
اسم أبيه أو جده: أبو بكر 47
اسم أُمّه: كَنْكُ 48
لقب السلطنة: مَنْسا 49
لقب آخر له: شرف الدين 50
بَيْت السلطنة 51
دَعوى النَّسَب العَلَوِيّ 52
دعوى النسب العلوي لسلطان غانة 55
صفاه وعاداته ومذهبه المالكي 61
مَمالِكه 63

تَوَلِّيه الحكم 67
فتوحاته وأعماله 68
جلالته وسعة ملكه 70
علاقاته الدولية 74
علاقته بسلطان مصر 74
علاقته بسلطان المغرب 75
مدة حكمه ووفاته 78
قبل بدء رحلة الحج 85
تمهيد في ذكر الحجاج من ملوك السودان 85
سلاطين حَجُّوا قبله 85
سلاطين حَجُّوا بعده 88
من دوافعه إلى الحج 90
كثرة الذهب والأموال والمؤن التي جلبها 91
جموع الحجاج والاستعدادات 94
طريق رحلة الحج، من مالى إلى مصر 95
الإنفاق في طريق الحج من مالى إلى مصر 97
حادثتان في طريق الحج 97
سرقة مصطنعة 97
بُحَيرة اصطناعية 98
بناء مساجد كثيرة في طريق الحج 101
شجاعة أحد حواشيه 102
لقاؤه أحد رجال الحكم 103
نزوله في مصر في طريق الحجاز، الوصول إلى القاهرة 103
منزله في مصر ومدة مكثه 104
لقاؤه السلطان المملوكي 105
تقبيل الأرض عند السلاطين 111
تبادل التكريم والهدايا بينه وبين سلطان مصر 115
هداياه للأمراء والعلماء والأعيان 117

أثر مروره في مصر 118
من مصر إلى الحجاز 119
في الحجاز 121
فتنة بين أصحابه والأتراك 122
بِرُّه وإحسانه في الحَرَمَيْن 123
رحلة العودة إلى مالى 124
نكبة في طريق العودة 124
الوصول إلى مصر، تبادل الهدايا بينه وبين سلطان مصر 125
نفاذ الذهب والاقتراض من التجار 126
استنجاد طالب سلطة به 127
في مالى بعد الحج، جلبه الأعيان إلى بلاده 129
قضاؤه ديونه وتوفية غرمائه 132
خريطة طريق حجه 134

